طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
لائحة القومي العربي
www.qawmi.com

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

طلقة تنوير العدد 44: القدس والقضية الفلسطينية

كلمة العدد: القدس أرض الخلود
طالب جميل

لمدينة القدس وعبر كل الأزمان قيمة روحية وتاريخية لدى كل العرب والمسلمين، فعدا عن كون أصولها كنعانية عربية، فإنها أيضاً مهد الرسالات السماوية ومعراج النبي محمد (ص) وأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، لذلك وعلى الرغم من قدسية كل شبر من الأراضي العربية إلا أن القدس كمدينة تعتبر منارة للإيمان والمحبة، وأرض مقدسة لدى كل العرب سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين ولا يمكن النظر للقدس إلا باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من فلسطين وعاصمتها الأبدية والخالدة.

وما يحدث في القدس هذه الأيام ليس إلا مشهداً من فيلم أمريكي صهيوني استعماري طويل، كانت فيه دائماً عروبة القدس وتاريخها وحضارتها مستهدفة عبر التاريخ، وكان مشروع احتلال القدس وإفراغها من مضمونها العربي وتفتيتها وتهجير سكانها مسلمين ومسيحيين وتدمير كافة الأماكن المقدسة فيها حاضراً عبر التاريخ، ومنذ أن سكنها الكنعانيون العرب.

لم يكن سماح السلطان العثماني عبد الحميد الثاني لليهود بالاستيطان في فلسطين وشراء الأراضي وإقامة المستعمرات هو البداية، بل كان ذلك تكملة لمشاريع استعمارية قديمة استهدفت فلسطين والمنطقة العربية، يمكن ربطها بشكل مباشر بما يحدث اليوم في أغلب الاقطار العربية (سورية، ليبيا، مصر، العراق، اليمن، السودان) وغيرها، فلا يزال المستعمِر نفسه يتربص بعروبتنا ويستخدم كافة أدواته في سبيل تجزئة تلك الأقطار وإثارة الفتن والحروب الطائفية والقبلية واستكمال مشاريع التفتيت، وكل ذلك لتنعم دولة الكيان الصهيوني بالرغد ولتصبح فلسطين الأرض والشعب والتاريخ والحضارة جزءاً من الماضي أو هنوداً حمر بشكل أو بآخر.

القدس تاريخياً، بما فيها المسجد الأقصى، لم تكن لتمتلك كل تلك القداسة إلا بلمسات وجهود عربية خالصة ساهمت فيها العواصم المركزية والمستهدفة حالياً من كافة القوى الاستعمارية في سورية ومصر والعراق، فالدمشقيون الأمويون هم الذين أقاموا قبة الصخرة المذهّبة والمسجد الأقصى، واستخدمت أموال سبع سنوات من خراج مصر لإقامة قبة الصخرة ومداخل المسجد الأقصى، أما تخطيط المسجد الأقصى الذي نراه اليوم فهو هندسة عباسية بغدادية.

طلقة تنوير 44: القدس والقضية الفلسطينية

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي... عدد 1 كانون الثاني 2018

- **كلمة العدد: القدس أرض الخلود/ طالب جميل**
- **القضية الفلسطينية من منظور واقعي/ كريمة الروبي**
- **قراءة ناجي علوش في مفهوم حرب الشعب ضد العدو الصهيوني/ إعداد إبراهيم علوش**
- **مكانة القدس على خارطة الصراع / بشار شخاترة**
- **القدس في العصور القديمة/ فارس سعادة**
- **عبد الكريم الخطابي والقضية الفلسطينية: الصفحة المُغيّبة من تاريخها النضالي/ إبراهيم حرشاوي**
- **شخصية العدد: الثوري الرافض لنهج التسوية مع العدو الصهيوني - وديع حداد/ نسرين الصغير**
- **تجذير مشروع المقاومة يبدأ بالتخلص من «مركزية البيت الأبيض»/ السيد شبل**
- **منبر حر: نقد فكرة "وحدة العرق اليهودي"/ أسامة الصحراوي**
- **الصفحة الثقافية: تاريخيّة السّيرة (3) – المؤسّسات الاجتماعيّة قبل الإسلام/ محمد العملة**
- **قصيدة العدد: أنا مع الإرهاب/ نزار قباني**

لمتابعتنا انظر موقع لائحة القومي العربي:
www.qawmi.com
وصفحة (لائحة القومي العربي) على فيسبوك
روابط صديقة:
موقع الصوت العربي الحر
www.freearabvoice.org

راسلنا على:
arab.nationalist.moderator@gmail.com

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

إن إنهاك الأقطار العربية بتلك الحروب والفتن تحت شعارات حقوق الإنسان وبناء الديمقراطيات المشبوهة يهدف بشكل لا يخفى على أي عاقل إلى تحويل الأقطار العربية إلى دويلات متهالكة ومفككة وإلى القضاء على جيوشها وتحييد قضية الاحتلال الصهيوني لفلسطين واعتباره أمراً واقعاً لا محالة للتمهيد لكافة أشكال التسوية والتطبيع والقبول بالتعايش مع هذا الكيان الاستيطاني الغاصب.

القدس جزء من قضية كبرى تبدأ عند فلسطين ولا تنتهي عندها، فأرضنا وعروبتنا وتاريخنا وحضارتنا ومقدساتنا وهويتنا كانت ولا تزال مستهدفة من كافة القوى الاستعمارية الحديثة، لذلك فإن الإيمان بوحدة الشعب العربي ووحدة الأرض العربية وعدم الاعتراف بحدود التجزئة ومحاربة كافة النزعات التفكيكية والطائفية واعتبار اليهود في فلسطين قاعدة للمشروع الصهيوني هي مشروعنا الحقيقي وطريقنا نحو التحرر، ولا يكون ذلك إلا بدعم كل أشكال العمل المقاوم ضد هذا العدو والاستمرار بطريق النضال وبذل التضحيات من أجل هذا الهدف المقدس ومن أجل القدس ولكي تبقى عيوننا وأفئدتنا ترحل إليها كل يوم.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

القضية الفلسطينية من منظور واقعي

كريمة الروبي

أثبتت الأحداث الأخيرة التي أعقبت قرار ترامب بنقل السفارة الأمريكية من "تل أبيب" إلى القدس، أنّ القضية الفلسطينية حاضرة في قلوب الشعب العربي من المحيط إلى الخليج رغم ما تعانيه الأمّة من صراعاتٍ وحروبٍ ومشاريعِ تقسيم، لكن ما زالت القضية بحاجة لأن يتم طرحها وتبنّيها بصورة مختلفة حتى لا ننتظر أحداثاً وكوارث لتجدّدَ الجماهير عهدها بالقضية وهو ربط الوجود الصهيوني في قلب الأمة العربية لحبس تطورها ومنع وحدتها وتقدمها بالمصلحة الذاتية لأفراد الأمة، فحين يدركون أنّ قوت يومهم مرهونٌ بوجود الكيان الصهيوني، سيكون محرّكه الرئيسي في تبنّي القضية الفلسطينية التبنّي الأمثل من حيث طريقة حلّ القضية التي سيرى أفراد هذا الشعب أن الصراع هو صراع وجود، ولا يمكن أن يقبل بكيان يؤدّي دوراً تدميرياً لحضارتهم ووجودهم وحتى في تفاصيل حياتهم اليومية ولن يقبلوا حينها بفكرة حلّ الدولتين، وكذلك من حيث استمرار التضامن وتبنّي القضية فلا يكون تبنّيهم للقضية تبنّياً موسمياً ينتظر أحداثاً استثنائية.

هذا المنظور النفعي سيقطع الطريق على المطبّعين أصحاب رؤية القبول بالأمر الواقع، والمتنطعين أصحاب فكرة قضية فلسطين للفلسطينيين وكفانا حروباً من أجلهم. كذلك فالمنظور المثالي للقضية يضرّ بها أكثر مما يمكن أن ينفعها، حيث أن هذا المنظور هو ما فتح الباب أمام تبنّي الإسلام السياسي للقضية الفلسطينية والذي يحيل أهمية تبنّي القضية من خدمة مصالح الأمة ونهضتها إلى الدين والعاطفة، ولا عجب في أن خيارات هذا التيار كلها كانت وما زالت تصب في مصلحة قوى النهب الدولي من حرب أفغانستان مروراً بالبوسنة والهرسك وكوسوفو وبورما وليبيا وليس انتهاءً بسورية.

يجب أن تدرك الجماهير أنّ الدفاع عن فلسطين ليس دفاعاً عن مقدسات فقط، وإلا لماذا تتضامن معنا دولاً غير مسلمة وحتى ملحدة؟ الحقيقة أن هذه الدول تدافع عن فلسطين انطلاقاً من مصالحها، فوجود كيان وصَفه زعيم كوريا الشمالية بأنه تابعٌ إمبريالي، يخدم مصالح القوى الكبرى التي لا تريد نهضةً أو استقلالاً لأية دولة خارج نظامهم الاقتصادي، ومناهضة هذا الكيان هو جزء من صراع تلك الدول مع الإمبريالية ومع منظومة النهب الدولي، لذا تجد دولاً لا تربطها بالقضية الفلسطينية أية روابط ولكنها تتبناها وتدافع عنها بل ولا تعترف بوجود ما يسمى "دولة إسرائيل"، من كوبا إلى بوليفيا وفنزويلا وكوريا الشمالية والأرجنتين ما قبل ديسمبر 2015 (حيث أنه بعد انتهاء حكم كريستينا فرنانديز دي كيرشنر اليسارية التي اعترفت بدولة فلسطين وأثارت غضب الكيان الصهيوني، ووصول رجل الأعمال اليميني المقرّب من أمريكا ماوريسيو ماكري، تغير موقف الأرجنتين من دعم القضية الفلسطينية بتغيُّر موقفها من الإمبريالية، حتى أنها امتنعت عن التصويت في الجمعية العامة للأمم المتحدة بخصوص قرار رفض نقل السفارة الأمريكية في القدس)، فموقف الدول من الإمبريالية ومنظومة النهب الدولي هو ما يحدد موقفهم من القضية الفلسطينية.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

لـذا فعلـى الشـعب العربـي أن ينظـر للقضيـة الفلسـطينية ذات النظـرة، وأن تركّـز نخبتـه علـى الربـط بيـن سـوء الحالـة المعيشـية والتخلّـف عـن ركـب الحضـارة وبيـن وجـود هـذا الكيـان اللقيـط، خاصـةً وأننـا كشـعب عربـي عشـنا هـذا الواقـع ورأينـا كيـف تعاقِـب الآلـة العسـكرية الصهيونيـة أيـة دولـة تسـير نحـو التقـدم والاسـتقرار والاسـتقلال وتحقيـق رفاهيـة شـعبها، وكيـف تمّـت معاقبـة مصـر "عبـد الناصـر" بعـد قـرار تأميـم قنـاة السـويس لتكـون مُلـكاً للشـعب؛ فشـارك الكيـان الصهيونـي قـوى الاسـتدمار فـي حربهـا ضـد مصـر فـي 1956، وكذلـك حيـن قـررت أن تنهـض وتبنـي مصانعهـا ومزارعهـا فبعـد نجـاح الخطـة الخمسـية الأولـى "1960-1965" ووصولهـا لمعـدلات تنميـة غيـر مسـبوقة، كان الـردّ فـي عـدوان يونيـو 1967 لتتعطـل مسـيرتها وتكفـر بالمسـار المسـتقل الـذي تبنّتـه وتستسـلم، وعلـى الرغـم مـن صمودهـا إلا أن هـذا العـدوان كان لـه تأثيراتـه فـي وقـف مسـيرة التقـدم، حتـى جـاء السـادات وتبنّـى أفـكاراً استسـلامية إن دلّـت علـى شـيء فإنمـا تـدل علـى أن السـلام المزعـوم مـع الكيـان الصهيونـي وقبـول وجـوده هـو مـا أدّى لتدهـور الحـال وتحـوُّل مصـر مـن دولـة ناهضـة تشـقّ طريقهـا، إلـى دولـة تعانـي مـن أزمـات اقتصاديـة متلاحقـة ولا تمتلـك قرارهـا السياسـي بالكامـل وهـو مـا أنتجتـه اتفاقيـة كامـب ديفيـد التـي فرضـت علـى مصـر مسـاراً اقتصاديـاً تابعـاً لا يحقـق نهضـة أو رفاهيـة لشـعبها، كمـا سـمحت للتنظيمـات المتطرفـة فـي سـيناء بالانتشـار، حيـث اشـترطت للانسـحاب مـن سـيناء أن تبقـى بـلا سـلاح يحميهـا ويؤمـن تنميتهـا.

وكذلـك سـورية التـي يتـم معاقبتهـا بإرسـال متطرفـي العالـم لإسـقاطها ويقـوم الكيـان الصهيونـي بتزويدهـم بالسـلاح وعلاجهـم بمشـافيه، حيـث يـؤدون لـه خدمـة كبيـرة بمنـع تطـور الدولـة السـورية والعـودة بهـا لعصـور مـا قبـل التاريـخ وفـرض نمـوذج التبعيـة عليهـا.

أمـا العـراق الـذي نجـح فـي التخلّـص مـن تنظيـم داعـش الإرهابـي فقـد واجـه بـكل قـوة محـاولات التقسـيم، فـكان الكيـان الصهيونـي هـو الجهـة الوحيـدة التـي سـاندت علنـاً انفصـال إقليـم كردسـتان العـراق والـذي رفـع دعـاة الانفصـال علـم الكيـان تقديـراً لـه علـى دعمـه لهـم. والقائمـة تطـول مـن انفصـال جنـوب السـودان إلـى سـدّ النهضـة الـذي يؤثـر علـى حصـة مصـر والسـودان مـن ميـاه النيـل، والحـروب والأزمـات والفتـن التـي تعانـي منهـا الأمـة العربيـة.

إنّ اعتبـارات الحـق والكرامـة والشـرف - ولهـا كل التقديـر - لا تكفـي وحدهـا لتكـون الدافـع لتبنـي قضيـة فلسـطين ولكـن اعتبـار المنفعـة ومصالـح الأفـراد هـو مـا يجـب علـى النخبـة أن تركّـز عليـه فـي خطابهـا للجماهيـر، فالخطـب المثاليـة والرومانسـية تعـزل القضيـة عـن واقـع الحيـاة المعيشـية للأفـراد وتجعلهـم ينعزلـون عنهـا ولا تمسّـهم سـوى مـن الجانـب العاطفـي وفـي وقـت محـدد ممـا يسـمح لقـوى انتهازيـة باسـتغلال مشـاعر الجماهيـر لتحويـل البوصلـة وتحقيـق مصالحهـا علـى حسـاب القضيـة والمصلحـة الجمعيـة للجماهيـر العربيـة.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

قراءة ناجي علوش في مفهوم حرب الشعب ضد العدو الصهيوني

إعداد إبراهيم علوش

"هنالك فعلاً مميزات خاصة لقضية فلسطين. أهم هذه المميزات اثنتان: أولاهما أن المعركة في فلسطين ليست بين شعب وحكومته، أو بين شعب وجيش محتل بالمعنى التقليدي كالاحتلال الإنجليزي للهند مثلاً، أو الاحتلال الفرنسي لفيتنام، بل هي معركة بين شعب مضطهَد، وشعب مضطهِد يملك جيشاً متفوقاً. ولذلك فإن المعركة تبدو وكأنها بين دولة ودولة أو بين شعب ودولة مجاورة. وأقرب مثل لما يحدث في فلسطين المعركة التي حدثت في الجزائر بين شعب الجزائر وأخلاط المعمرين الأجانب. وثاني تلك المميزات أن قسماً كبيراً من شعب فلسطين يعيش خارج أرضه، إما على أرض فلسطين ذاتها، أو على أراضٍ عربيةٍ مجاورة."

"لكن هاتين الميزتين لا تغيران شيئاً من قوانين حرب الشعب، ولا تنقصان من فعاليتها، فوجود شعب مضطهِد على أرض الوطن لا يجعل المعركة محصورة بين مقاتلي الشعب والجنود الغزاة، بل يجعل كل بيت وكل شبر من الأرض ميدان معركة. هنا تصبح الأهداف كثيرة أمامنا، ويصبح العدو ملزماً بحماية عددٍ كبيرٍ من الأهداف، لا بحماية معسكراته فحسب. إن اتساع رقعة الأهداف تعطي المقاتلين تفوقاً استراتيجياً وتكتيكياً. ذلك أن اتساع مدى الأهداف يفرض على العدو أن يوسع شبكات دفاعه إلى الحد الأقصى، ولكنه مع ذلك يظل عاجزاً عن حماية هذه الأهداف. من هنا تأتي قوة المقاتلين الشعبيين... إنهم قادرون على أن يحرموا كل فرد من جنوده، وكل مواطن من مواطنيه من أن ينام قرير العين، وقادرون على إحداث أضرارٍ لا تحصى في الأرواح والممتلكات، أي أنهم قادرون على خلق مشكلة أمن كبرى في المرحلة الأولى. ولنتصور مثلاً ماذا تكون الحال لو أن الفيتناميين كانوا قادرين على نقل القتال إلى الأرض الأميركية! لنتصور مثلاً ماذا كان سيحدث لو أن الفيتناميين كانوا قادرين، لا على قتل الجندي الأمريكي، وتدمير الدبابة الأمريكية فحسب، بل كانوا أيضاً قادرين على نسف المصنع الأميركي، وتدمير المزرعة الأميركية إلخ..."

"إن وضعاً كهذا وضع ممتاز. هنا تختلط جبهة العدو ومؤخرته، وتتحد مواقعه المدنية بمواقعه العسكرية، ومواقعه الاقتصادية بمواقعه السياسية. ونتيجة هذا الاختلاط يصبح من السهل على المغاورين أن يهزّوا النظام بأجمعه".

كتب ناجي علوش هذه الكلمات في زمنٍ كانت لا تزال فيه حرب فيتنام مستعرة، في كتابٍ صغيرٍ بعنوان "الثورة الفلسطينية، أبعادها وقضاياها" تمّ نشر الطّبعة الأولى منه عن دار الطليعة في بيروت في حزيران 1970 تحديداً، وقد جاءت الفقرات أعلاه في سياق محاججة استهلَّ فيها الفصول الأولى التي نركّز عليها هنا من كتابه، ويتلخص محورها المركزي، البديهي والراهن، في أنّ طاقات الشعب العربي الكبيرة لمّا تدخلْ بعدُ ميدان الحرب ضد العدو الصهيوني، وأنّ هذا يدعو للانطلاق من مفهوم "حرب الشعب" عند الحديث عن تحرير فلسطين، وهو مفهوم تشكّل حرب الغِوار، المعروفة أيضاً في الأدبيات السياسية باسم "حرب العصابات"، وهو النهج الذي تبنته المقاومة الفلسطينية المعاصرة ضد العدو الصهيوني منذ انطلاقها، وجهاً واحداً من وجوهها فحسب.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

ويضيف ناجي علوش في هذا الصدد أنّ تأخر انطلاق حرب الغِوار الشاملة في فلسطين يعود إلى عددٍ من العوامل منها: 1) أن أنظمة مختلفة حكمت فلسطين، منها الانتداب البريطاني، عملت بشكلٍ حثيثٍ على سلب الشعب العربي الفلسطيني وسائل مقاومته، ومن ذلك تنظيفها من السلاح والتعامل مع امتلاكه كجريمة كبرى، ومنه تكسير التنظيمات السياسية ذات النزعة المقاومة، إلخ... 2) أن الشعب الفلسطيني عاش حالةً من الشتات الداخلي والخارجي، بين الضفة الغربية والجليل وغزة، وبين الداخل والخارج، وبين مجتمعات الشتات في الأقطار العربية المختلفة، مما أعاق تبلور حركة مقاومة عامة، 3) أن أبناء فلسطين كانوا ينتظرون حلّاً يحققه جيش عربي نظامي، "وكان إيمانهم بهذه الحقيقة، وارتباطهم بها، يشلّهم عن أي نشاط ذاتي"، 4) أن الفلسطينيين، وعناصرهم الملتزمة سياسياً، عاشوا أزمة الحركات السياسية العربية، أزمة تقلّباتها وأخطائها وصداماتها، واحتقارها العمل الشعبي المسلح.

ويرى ناجي علوش في هذا السياق أنّ "دخول الجماهير العربية الوافرة في معركة مع تلك الدولة الصغيرة (الكيان الصهيوني) يحسم الأمر. لكن هذه الحرب الشعبية لا بد لها من ثلاثة شروط لكي تكون ناجعة هي:
أولاً: أن تُعبّأ قوى الجماهير العربية تعبئة ثورية، خلال الكفاح، وأن يُستفاد من الإمكانيات المادية في الوطن العربي.
ثانياً: أن يُستفاد من الجيوش العربية، إما باندماجها مع القوى الشعبية في المرحلة الأولى من حرب التحرير، أو باعتبارها جيوشاً نظامية تنشأ إلى جانبها قوى شعبية.
ثالثاً: اعتبار أن الحرب تبدأ حربَ عصاباتٍ لتنتهي بحربٍ شاملة، تستخدم فيها أساليب القتال النظامي وشبه النظامي، إلى جانب أساليب القتال الشعبية".

الحديث لا يدور إذاً عن شطب الجيوش النظامية ودورها، بل عن تعبئة كل طاقات الأمة في مواجهة شاملة، لا سيما في ظلّ ميلان ميزان القوى إلى جانب الطرف الأمريكي-الصهيوني على المستوى النظامي، والفكرة العامة هي تعبئة الجماهير للقتال، مما نستشف في فقرات أخرى أنه لا يتعلق بالتعبئة الدعائية فحسب، بل بالتعبئة السياسية والتنظيم والتدريب والتسليح، مع المزاوجة بين النظامي وشبه النظامي والشعبي، لعله من المقدمات النظرية لمقولة "الشعب والجيش والمقاومة".

وعمّن يزعمون أن ممارسة حرب الغِوار ليست متاحة في فلسطين: "هناك من يرى أن حرب الشعب غير ناجعة ولا كافية، لأن رقعة فلسطين ضيقة، وخالية من التضاريس المؤاتية، ولأن سكانها العرب قلّة"، أي أنّهم أقلية، لا سيما في عام 1970، مقارنة بمحتلّيها، لكن "مشكلة القائلين بوجهة النظر هذه أنهم يتجاهلون مبادئ أساسية من مبادئ حرب الشعب، وهذه المبادئ هي: 1) أن الإنسان هو العنصر الأساسي والأول في هذا الصنف من الحروب، وأن إرادته وتصميمه كفيلان بالتغلب على كل العقبات، 2) أن التنظيم هو العنصر الأساسي الثاني الذي يعطي للإرادة والتصميم قدرة وفعالية، 3) أنّ القدرة على التفاعل مع الجماهير والاندماج بها، هو العنصر الأساسي الثالث الذي يجعل الإرادة والتصميم والتنظيم عوامل خلّاقة، 4) أنّ القدرة على التكيّف والاحتمال والكفاءة والجسارة وحسن التقدير والإخلاص هي التي تجعل مما سبق ثورة".

"وما المساحة وضيقها أو اتساعها، والتضاريس وسهولتها أو وعورتها، وما السكان ووفرتهم أو قلتهم، وازدحامهم أو تفرقهم، إلا عوامل ثانوية مساعدة... إنّ حرب الشعب، إذا توافرت لها ظروفٌ معينة، مهيّأة لأن تنتصرَ في بلدان كقبرص التي تزيد مساحتها عن ثلث مساحة فلسطين، وهي مهيّأة لأن تنتصر في أصغر وأسهل تضاريس. ذلك أن حرب الشعب – وهذه ميزة أساسية لها – ليست حرباً جامدة. إنها حربٌ متكيفة. وهذا يجعلها صالحة للمدن والسهول والجبال، للتضاريس السهلة وللتضاريس الوعرة، للأدغال وللصحارى والسهول... والمقاتِل الذي يستطيع أن يجعل من الجبل ملاذاً، يستطيع أن يجعل من المدينة أو القرية ملاذاً، وهو عندما يكون منعزلاً في الجبال أو الغابات، أضعف منه حين يكون مندمجاً مع السكان في المدن والقرى. ولهذا فإنني أرى أن المقاتلين يستطيعون، إذا التزموا المبادئ الأساسية التي ذكرتها سابقاً، أن يجعلوا من مدينة كمدينة القدس، أو مدينة كالخليل أو نابلس أو جنين ميدانَ حرب شعبية، إلا أن عليهم في مثل هذه الحالة أن يحققوا مستوىً عالياً من التنظيم، وأن يتقنوا فنون التمويه، وأن يستطيعوا الاندماج مع الجماهير. ويعطي حي القصبة في مدينة الجزائر مثلاً حيّاً لما يستطيع أن يفعله حيٌّ صغيرٌ محاصر، وإن مدينة القدس العربية، لتشبه حي القصبة من وجوهٍ عدةٍ، وإن كانت تتمتع بمزايا عدة، أهمها سراديبها وأنفاقها. وهي مهيأة للعب دور في حركة المقاومة أكبر من الدور الذي لعبه حي القصبة".

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

ولا شكّ أن ما طرحه ناجي علوش بات أكثر صعوبةً اليوم في ظل وجود السلطة الفلسطينية وتعهّدها بإحباط العمل المقاوم في فلسطين، وفي ظل عمليات العزل التي فرضها الصهاينة على القدس القديمة التي تمّت مقارنتها بحي القصبة (مدينة الجزائر القديمة) التي خاضت فيها المقاومة الجزائرية معركة بطولية عام 1957. لكن بالرغم من هذه التطورات، فإنّ الفكرة العامة تبقى صحيحة: "فلسطين إذاً ليست صغيرة على حرب الشعب، وسكانّها ومهاجروها ليسوا محرومينَ من المزايا التي تقدّمها حرب الشعب".

الأهمّ ما يضيفه ناجي علوش بعد ذلك، وما كان سيكون ناجي علوش هو القومي العروبي نفسه لو لم يضفْه، حتى في ظلّ انخراطه المباشر في العمل الفدائي الفلسطيني في تلك الفترة، فهو لم يكن يضع أسساً نظرية للعمل فحسب، على أهمية ذلك الشديدة: "ولكن مجرد تصور أنّ حرب الشعب في فلسطين ستلتزم بأرض فلسطين ميداناً لها، هو تصورٌ قاصرٌ عاجز. ففلسطين ليست وطناً قومياً، وسكانّها العرب ليسوا أمّة منعزلة. إنهم أبناء أمة وافرة العدد، أرضها واسعة شاسعة. وإذا كان الاستعمار البريطاني والفرنسي قد وضع حدودها الحالية، فإنما فعل ذلك ليجعلها هزيلة بشرياً، ومحرومةً من البعد الاستراتيجي سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، فيسهل بالتالي استيلاء الصهيونية عليها. ومنذ وعد بلفور حتى الآن دأبت الصهيونية، ومعها كل القوى الاستعمارية، على اعتبار كل ما هو خارج حدود فلسطين التي وضعها الاستعمار البريطاني أجنبياً عنها. إنّ الفلسطيني الذي يغادر فلسطين يعتبر أردنياً أو سورياً أو مصرياً حال خروجه، بينما تصرّ الدعاية الصهيونية على اعتبار كل يهودي، روسياً كان أم إفريقياً، مواطناً "إسرائيلياً" أصيلاً!"

ولينتبه القارئ الكريم جيداً للفقرة التنبؤية التالية من ناجي علوش المكتوبة عام 1970: "إن مؤامرة "التغريب" هذه تستهدف أمريْن، أولهما إشعار كل فلسطيني بأنه غريبٌ عن أرضه، وثانيهما إشعاره أن الأرض المحيطة بأرضه، والناس المحيطين بوطنه، ليسوا من أمّته. ولهذا تسعى الصهيونية جهدها لإشاعة فكرة تقول بأنّ العرب ليسوا أمة، وأنّهم مجموعة من الشعوب والطوائف. ومن هنا تنطلق الدعاية المركزية لخلق قوميات وهمية، أو لاصطناع خلافات طائفية وعنصرية في الوطن. إنّ ما يهم العدو، والإمبريالية العالمية من ورائه، هو عمل كل ما يمكن عمله لتعميق التجزئة في الوطن العربي، ولزيادة التناقضات واصطناع النزاعات، لأن وحدة الجماهير العربية هي العلاج الناجع لمشكلة السرطان الصهيوني". ويمكن أن نضيف بداهةً أن العكس صحيح بالضرورة، وأن تفجّر التناقضات المصطنعة أو الثانوية يخلق الظروف المثلى لإدامة وجود الكيان الصهيوني.

ثم يتابع، مشتقاً الحسَّ القومي من ضرورة تحرير فلسطين (ليعتبر من يرى تحرير فلسطين البداية والنهاية فحسب): "من هنا تأتي أهمية هذا الوطن بشرياً وجغرافياً. فمن الناحية البشرية إن الجماهير العربية مصدرٌ لقوى زخّارة، قادرة على استئصال العدوان الصهيوني، إذا ما جُند قسمٌ بسيطٌ منها. وليس هنالك من يجهل بأنّ هذه الجماهير شديدة الحماسة. ومن الناحية الجغرافية هنالك الأرض العربية الواسعة الشاسعة بتضاريسها المختلفة، من الجبال المشجّرة إلى التلال إلى السهول إلى الصحارى. ويشكل كل نوعٍ من هذه التضاريس أرضاً مؤاتية بالنسبة لنا وغير مؤاتية بالنسبة للعدو، إذا ما استطعنا استدراجه إليها. ولهذا فإن حركة التحرير الوطنية الفلسطينية لا بد لها من أن تستفيد من إمكانيات الوطن العربي استفادةً كاملة. وهذا يتمثّل في المجالات التالية:

أولاً: إنشاء قواعد ومقرّات خارج حدود فلسطين تكون مواقع تحشيدٍ وتدريبٍ وتموين، ومثل هذه القواعد لا بد من إنشائها، لأنه من المستحيل الآن تأمين إنشاء مثل هذه المراكز في الداخل. وقد فعلت ثورة الجزائر مثل هذا، فأقامت قواعد لها في تونس والمغرب. وهذا ما فعلته ثورات من قبلُ (حرب الشعب في كوريا ضد اليابان مثلاً).
ثانياً: إنشاء شبكات الدعم والمساندة في البلاد العربية، ومهمّتها حماية المقاتلين الفلسطينيين، ثم حماية أرضهم من غارات العدو أو غزواته، ولا بد من أن تتطور لتتحول إلى المشاركة الفعلية في القتال.
ثالثاً: اعتبار الأرض العربية الشاسعة مؤخرة للجبهة، بكل ما تعنيه كلمة مؤخرة من معانٍ سياسية وعسكرية.

إن ما يسمى "القواعد الخارجية" ذو أهمية خاصة في حرب الشعب. ولعلّ إصرار بعض العسكريين البارزين على اعتبار "القواعد الخارجية" أهم أسباب نجاح الثورات (الجنرال أندريه بوفر، مدخل إلى الاستراتيجية العسكرية، دار الطليعة، بيروت، 1968، ص. 163؛ غبريال بونيه، حروب العصيان والثورة، دار المكشوف، 1960، ص. 309).

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

"ومع أن إنشاء "القواعد الخارجية" عاملٌ مهمٌ، فإنّ القواعد التي تنشأ على أرضٍ عربية، خدمةً لقضية فلسطين، ليست "قواعد خارجية"، إلا إذا وافقنا على التجزئة المصطنعة، وأيّدنا مزاعم أعدائنا في أننا أمم وليس أمة واحدة، وتجاهلنا إرادة شعبنا العربي أينما كان. وإذا كانت الدول الاستعمارية وحواشيها من المفكّرين والكتّاب، يسمون هذه قواعد خارجية، فلسنا ندعوها كذلك. إن القواعد التي أنشئت على أرض تونس أو المغرب لخدمة الثورة الجزائرية، أو القواعد التي تنشأ الآن في الأغوار أو الجولان أو جنوب لبنان ليست قواعد خارجية... إنها قواعد داخلية، مثلها مثل القواعد التي تقوم في فيتنام الشمالية لخدمة الثورة في فيتنام الجنوبية".

"ولكنّ العدو مضطر أن يدعوها "قواعد خارجية" هنا في فلسطين، كما هي الحال هناك في فيتنام، وكما كانت الحال في الجزائر، والهدف من ذلك هو اعتبار قيامها تدخّلاً في شؤونه، وبالتالي اعتبار أي عدوان يقوم به عليها عدواناً مبرراً. إلا أنّ اعتبارها "قواعد خارجية" يفرض على العدو الالتزام ببعض الأعراف الدولية، فالاعتداء على قاعدة للثوار الجزائريين في تونس هو اعتداء على تونس، والاعتداء على قاعدة للمقاومة الفلسطينية في الأردن هو اعتداء على الأردن، وهكذا. وعلى الرغم من أن الغزاة الصهاينة في فلسطين، كالغزاة الأمريكان في فيتنام، ككل الغزاة، لا يحترمون أية شريعة دولية أو إنسانية، فإنّ وجود قواعد خارج منطقة احتلالهم يجعلهم أمام ثلاثة خيارات. فإمّا أنْ يلجأوا إلى احتلال المناطق التي يكون الثوار قد أنشأوا قواعد فيها، أو أن يلجأوا إلى اتخاذ إجراءات ثأرية زجرية، أو أن يكتفوا بالشكاوى إلى المنظمات الدولية واستخدام التهديد والضغط السياسي، أو أن يختاروا أكثر من حلٍ في وقتٍ واحدٍ كالغارات الثأرية والضغط السياسي إلخ... ولقد اكتفت فرنسا، بالنسبة للجزائر، بالضغط السياسي على تونس والمغرب، وبإنشاء خط موريس المكهرب لإغلاق الحدود مع تونس، وببعض الغارات الانتقامية كالغارة على "ساقية سيدي يوسف". ولم تفعل فرنسا شيئاً مع الصين الشعبية لتأييدها فيتنام، بعد سنة 1949، كما أن الولايات المتحدة لم تستطع أن تفعل شيئاً للصين نتيجة موقفها من الحرب الكورية".

.... للجادين فقط بشأن القدس وفلسطين. والباقي هراء.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

مكانة القدس على خارطة الصراع

بشار شخاترة

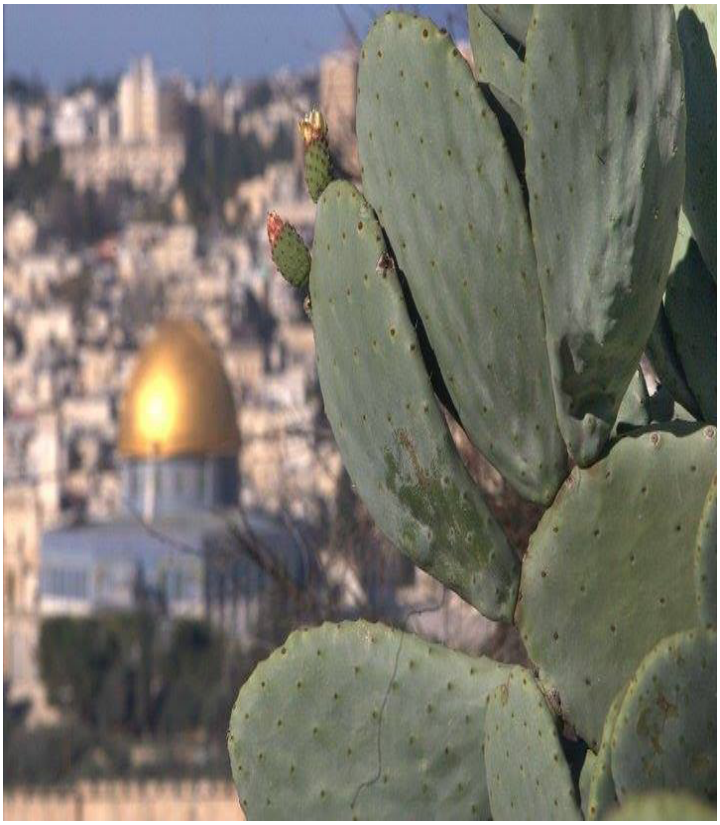

بالنظر إلى المشهد الكلي للواقع العربي، ومن هذه النافذة تحديداً، يجب أن نقاربَ الفكر والفهم إلى مدينة القدس، ولا يختلف اثنان في أنّ الزاوية التي يأخذها المراقب تؤثر على نتائجه اللاحقة، ناهيكَ عن أننا أصحاب قضية ولسنا مراقبين محايدين، لذلك سنحسم الجدل من أوله لهذه الجهة من حيثية أنّ القدس المدينة والقدس التاريخ والقدس كقبلة دينية يتلخّص فيها المشهدُ العربي الراهن، وأنه لا يصحّ مناقشة القدس دون الانطلاق من جوهرها ومظهرها العربي. والدافع للانطلاق من هذه الزاوية أنّ الرؤية القومية تأتي في سياق التمسّك بعروبة القدس من وجهة نظر الحقّ التاريخي والامتداد البشري والحضاري على القدس الذي كان ولا يزال عربياً من دون اختلاق مبررات في هذا المجال، بل هي مبررات منطقية وواقعية يقودنا إليها طرح السؤالين التاليين:

كيف تتم إدارة الصراع العربي مع الصهيونية والإمبريالية العالمية؟ وما هو الاتّجاه العام الذي يتقدّم فيه هذا الصراع؟ الإجابة على هذين السؤالَيْن يفتح أمامنا طريق الفهم وتقدير الموقف في شأن موضوعة القدس.

بالإجابة على السؤال الأول، فإنّه من المؤكّد أنّ تقاطع المصالح الاستعمارية الغربية مع المصلحة الصهيونية قد أوجَدَ أرضية مشتركة خططت ومهّدت الطريق للاستيلاء على عموم فلسطين، ففي الجانب الاستعماري كان الهدف إيجاد قاعدة استعمارية كبيرة في قلب الوطن العربي عائمة على البر تستطيع أن تعمل بشكل آلي في حال تعرُّضها للخطر والدفاع عن ذاتها وعن الغاية من إقامتها إلى حين وصول النجدة لها، وفي نفس الوقت تمتلك العقيدة التي تقنع أفراد هذه القاعدة المتقدمة أنّهم في وطنهم لا مجرّد جنود سينهون خدماتهم ويعودون إلى وطنهم الأصلي ليقضوا آخر أيام حياتهم فيه، ويكتمل المشهد على الجانب الصهيوني الباحث عن حلمٍ بإقامة وطنٍ لليهود بسبب عدم قدرتهم على الإندماج في المجتمعات التي عاشوا فيها، سواء بسبب مزاعم "اضطهادهم" أو بسببِ أدوارهم الاجتماعية-الاقتصادية الطفيلية ونزعتهم للتقوقع التي جعلتهم في حالة تضاد دائم مع البيئات التي عاشوا فيها، وهذا الحلم "القومي اليهودي" النامي على هامش ازدهار القوميات الأوروبية والباحث عن "وطنٍ لشعب" وجد ضالته لدى الإمبريالية العالمية بقيادة بريطانيا في حينها واستكمل المشروع أمريكياً.

وليست الطموحات "القومية" هي الباعث الصهيوني الوحيد، فهناك باعثٌ ديني يهودي لدى قطاع عريض من يهود العالم، وإن كانت الشرارة الأولى له انطلقت من أوروبا وأمريكا مع انطلاق الحركة الصهيونية كمعبّر عن الأمل اليهودي، والباعث الديني مثّل نقطة الالتقاء الثانية مع الإمبريالية من جهة عقائدية يؤمن فيها "الشعب اليهودي" بالخلاص والرجوع إلى أرض الميعاد استجابةً "للوعد الإلهي" بعد رحلة طويلة في الشتات، تمثّل فلسطين فيها "الأرض المقدسة"، وتمثل القدس فيها جزءاً عقائدياً لا تكتمل حياة اليهودي الإيمانية إلا به، مستندينَ إلى خرافات توراتية وتلمودية تمّ تعميمها عالمياً على أنها حقائقُ تاريخية ومرجعية في تأريخ هذه البقعة من العالم وحياكة مفاهيم السامية والشعب المختار والوعد الإلهي إلى آخر هذه الخرافات، وشكّل الاختراق اليهودي للعقيدة المسيحية، وتحديداً البروتستانتية، محفّزاً إضافياً مسيحياً من أجل عودة المسيح دفع باتجاه تعزيز الخرافات اليهودية في بعض المجتمعات الغربية.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

وعن السؤال الثاني نجيب بأنّ الاتجاه الذي يتقدم فيه الصراع يسير بطريق تقطيع مفاصل الأمة العربية، وفلسطينياً بإخراج القضية من وصفها الحقيقي العربي إلى توصيف إقليمي وديني بحيث تعطي الصهيونية مساحة أوسع للجدل والتبرير من أجل تثبيت الخرافة اليهودية حول فلسطين.
فالتوصيف الديني للصراع يدخلنا في جدل مؤسس على مقولات دينية يهودية استطاعت الدعاية اليهودية العالمية الارتقاء بها إلى درجة المسلّمات، مما يصبح من الواجب الردّ عليها بمقولات دينية إسلامية مسيحية ستقف على قدم المساواة مع المبررات اليهودية بالاستناد إلى أنّ الديانات تتقاطع في هذه البقعة من الأرض ونقطة التشابك الرئيسي فيها هي القدس، ويبدأ الجدل على أساس هل نتصادم أم نتحاور، لا سيما أنّ جميع الأطراف لديها ارتباطٌ روحيٌ في القدس؟! وهنا تكمن خطورة هذا الطرح بحيث تتكرس المقولة الدينية اليهودية وتأخذ مكانها على الأرض بالاعتراف بالحقوق المتساوية فيها، وطالما أن السيطرة الفعلية على الأرض لهم فإنه بالنتيجة سيتكرّس الاحتلال، ويعزز هذا التوجّه الاعتراف الضمني عند الإسلام والمسيحية بقدرٍ ما بعلاقة دينية لليهودية في فلسطين مما يهيئ العقل للقبول بحقوق دينية لهم في القدس ومن ثم فلسطين كاملة!

وتتحدث دراسات استشراقية لمستشرقين يهود عن أن القدس لم تكن ذات بالٍ في المزاج العربي الإسلامي عقب الفتح، والذي أعطاها بُعداً مقدّساً ومشروعيةً دينيةً اهتمام الخليفة عبدالملك بن مروان وبناء مسجد الصخرة، حيث أن الاعتناء بالقدس جاءَ كردٍ على صراعه مع عبد الله بن الزبير إبان سيطرة الأخير على الحجاز وانكفاء الشام عن الحج إلى مكة، مما اعتبره المستشرقون خَلْقاً لشرعية دينية موازية لشرعية مكة وابن الزبير، وأنّ هذه القدسية أسبَغها عبدالملك على القدس بوحيٍ من اليهودية والمسيحية، واستحضار مثل هذه القداسة من عمق التاريخ جاء توظيفاً للتاريخ في السياسة وليس نابعاً من قيمة حقيقية ودينية في الوجدان الإسلامي، وهذا ما وضع القدس على خارطة التقديس الإسلامي عبر العصور اللاحقة، ويحتج هؤلاء بأن القدس كانت القِبلة الأولى في معرِض محاولة النبي محمد استقطاب اليهود إلى صفّه في الجزيرة العربية، وعندما لم يُجدِ ذلك نفعاً تحوّل إلى مكة كقِبلة جديدة، وبالتالي فإنّ القدس، بحسب هؤلاء، لا تشكّل ذلك الحيّز المقدّس في العقيدة الإسلامية، وإنّما شكّلت قدسية مرحلية غائية وانتهت.

لا شكّ في أنّ الدراسات الاستشراقية ليس فقط لا تخلو من التحيّز، ولكنّها تفتقد إلى العلمية والمنطقية وتنحرف بالتاريخ إلى ما يخدم الدعاية اليهودية، ونؤكّد أن ما جاء في القرآن الكريم حول حادثة الإسراء والمعراج يؤكّد عكس هذه الاستنتاجات الخرقاء، ويعزز القول تأويل هذه الآيات - ((سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .....)) – تأويلاً قومياً لا تأويلاً دينياً، فعندها يمكن نسف نتائج المستشرقين من أساسها بالقول أنّ دلالة حادثة الإسراء والمعراج تؤشّر بشكلٍ واضح على البعد القومي والربط المنطقي بين الشام والجزيرة العربية، وأنّ القِبلة سواء كانت في القدس أم في مكة فهي ضمن إطارٍ واحدٍ وامتدادٍ جغرافي عربي واحد، وكان يرسل برسائل واضحة للروم الذين يسيطرون على الشام حينها،ومنها القدس، أنّكم محتلّون وأنّ مصير هذه البلاد مرتبطٌ ارتباطاً عضوياً بالجزيرة العربية، وأنّ استكمال قراءة الآيات السابقة تتكلم بشكل واضح عن التحرير الأول للقدس من الاحتلال اليهودي على يد الآشوريين والبابليين العرب، ففهم النص القرآني وقراءة الروايات التاريخية قراءة قومية بالانطلاق من عروبة هذه الأرض يخرج اليهود من دائرة الوجود الشرعي كجماعة دينية لها حقوق تاريخية ودينية في القدس وفلسطين إلى دائرة المحتل كما هي حقيقتهم اليوم والأمس.

وجودهم التاريخي في فلسيطن والذي لا أساس له سوى في خرافاتهم وأنه ما من بناء تاريخي على أرض القدس إلا ينطق بعروبته وعروبة من بناه منذ آلاف السنين، ولا أثر لوجودهم في العمران وطرائق العيش وأدواته سوى ما كان لأهل البلاد العرب الأصليين، فاليهود كمحتلين غزاة لم يأتوا بشيء إضافي حضاري، لا بل يمكننا القول أنهم أقوام خليطة من الغزاة تجمّعت على فكرة الغزو ولم تمتلك رصيداً حضارياً بل ركبت على حضارة أهل الأرض وتعلّمت منهم، وعندما سَنَحت الفرصة للأمة تمّ اقتلاعهم ودون بقية لهم.

من هذا الفهم نضع القدس في مكانها الصحيح على خارطة الصراع العربي-الصهيوني، ونضيف أنّه على مرّ تاريخ بلادنا لم تكن القدس هي المدينة الأولى ولا الثانية ولا الثالثة في ترتيب الأهمية من بين المدن العربية عبر التاريخ خصوصاً في العصور التي كانت فيها كل البلاد العربية تستظلّ تحت جناح دولة عربية واحدة، وهذا معزز إضافي في فهم القدس قومياً من أنها مدينة عربية كغيرها وتعرّضها للاحتلال يجب أن يُعامَل بالحزم الكافي لتحريرها، وأنّ احتلالها كاحتلال يافا وحيفا وسبتة ومليلة والإسكندرون والأحواز، وأنّها حين كانت ترزح تحت الاحتلال كان التحرير ينطلق إليها من محيطها العربي، ولم يحدث أن تمّ تحريرها من قِبل أهلها وحدهم، فكانت جيوش التحرير تنطلق من الشام والعراق والجزيرة ومصر، وهذا ينطبق على كامل فلسطين.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

إن أهمية التركيز على موضوع القدس سببه تركيز المحتل على تكريس أساس عقائدي لوجوده على أرض فلسطين تحتل القدس مكاناً بارزاً في تسويق الخرافة، مما يستدعي الردّ والدفاع من وجهة نظر عقائدية قومية عربية، ولكن فيما يتعلق بالاحتلال فإنّ التعامل والردّ يكون متساوياً ولا مبرر منطقياً يستدعي الهبّة للقدس دون عكا وحيفا والجليل، حتى لا تقع الأمّة في فخّ التسليم بأجزاء من أرضها وتتمسك بأجزاء تحت مسمى القداسة، لهذا يجب إسباغ الرؤية القومية على موضوع القدس لا النظرة الدينية فحسب، فالواجب أنّ الاحتلال يقع على كامل فلسطين ومنها القدس، وأنّ الهبّة لمشاغلة العدو يجب أن تحافظ على وتيرتها، وهذا لا يعارِض الانتفاض من أجل القدس نظراً لما تعنيه من قدسية في نظر المسلمين والمسيحيين.

إنّ محاولة انتزاع القدس من الصراع العربي-الصهيوني إلى صراع إسلامي-مسيحي-يهودي، أو إلى صراع على القدس وحدها، يعمي النظر عن المشهد الكلي للاحتلال، ويقود إلى اختلاق حلول تفسر لنا ماهية القدس، فهل القدس شرقية أم غربية أم هي الأماكن المقدسة فقط عند المسلمين والمسيحيين والباقي لليهود؟! فالتمسك بكَوْن القدس إسلامية فقط، الذي تريده بعض الدول الإسلامية لتفتح الباب لممارسة دور سياسي، يجب النظر إليه بعين من الريبة، فإذا لم يكن الدور المطلوب مقتنعاً أن الحلّ بتحرير كل فلسطين من الاحتلال وأن الدور المطلوب متعلّق ببعض المقدسات الدينية في القدس فإنه دور مختَرق ومضلل، لذلك لا بدّ من العودة للمفهوم القومي للقدس، عندها لا مشكلة من الدور الإسلامي المسانِد للدور العربي المطلوب، وهنا يمكن توسيع قاعدة مجابهة العدوان الصهيوني على القدس وفلسطين.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

القدس في العصور القديمة

فارس سعادة

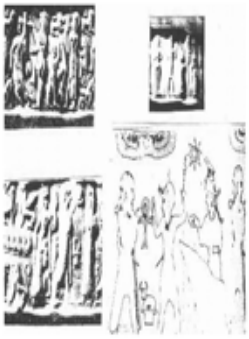

مدينة القدس تحكي حكاية جنوب سورية التاريخية عبر العصور رغم أنها لم تكن في كثير من الحقب المدينة "الأهم" على المستوى الاقتصادي-السياسي أو الجغرافي-السياسي، إلا أن رمزية القدس كمدينة هي رمزية تعبر عن كل فلسطين التاريخية كمركز جذب للغزاة بسبب موقعها الجغرافي أولاً، وللرمزية الدينية التي تمثلها القدس لكل من الديانة المسيحية أولاً وللإسلام ثانياً ولليهودية كما يدعي الصهاينة.

وحة الرب إيل على الفخار

تمثال الإله بعل

أختام أسطوانية

تمثال الآلهة عشتروت

دمية ربة من البرونز

لوحة بيسان الشهيرة، من الحجر(فلسطين)

تاريخ القدس ليس أقدم من تاريخ أور في العراق وليس أقدم من تاريخنا المدفون في الخليج العربي ومصر لكن قضية القدس تمثل جوهر الصراع بين من يملك الأرض بحق وبين من يريد سرقتها، بين من يريد لعروبة القدس بالشروق من جديد وبين من يريد محو هويتها العربية بالقوة والأساطير الدينية، بين من يدق الأجراس ويشدو من على مآذنها الشامخة وبين من يريد كسر الأجراس وإسكات المآذن، فهم يريدون فصل شطري الوطن العربي عن بعضهما من خلال القضاء على عروبة فلسطين لا القدس وحدها. القدس هي مركز الصراع في فلسطين،صراع على هوية الأرض وهل هي عربية أم غير ذلك، وفلسطين هي القضية المركزية للأمة العربية لذلك يتوجب على كل مواطن عربي معرفة تاريخ القدس كأساس معرفي وثقافي في ظل الصراع المرير على القدس بين الإمبريالية العالمية والصهيونية وبين العرب وكل من ساندهم في قضيتهم المحقة وهي أن فلسطين من البحر إلى النهر لنا نحن العرب سكان هذه الأرض منذ فجر التاريخ.

أصدق ما يخبرك بالحقيقة التاريخية التي حدثت وانتهت في زمان ومكان ما هي المادة، أي كل ما هو ملموس ومنظور، وعلم الآثار استطاع رد كل الراويات التوراتية وغيرها من الروايات - وللأسف بعض هذه الروايات مسيحي/ إسلامي- التي كتبت وحيكت حول مدينة القدس تحديداً. القدس تقع على دائرة عرض 36-46 شمالاً، وعلى خط طول 35-13 شرقاً، قبالة البحر الميت ونهر الأردن ومرتفعاته "مؤاب" على بعد حوالي 22 كم، وهي تواجه السهل الساحلي للبحر الأبيض المتوسط غرباً وتبعد عنه 40 كم، ومتوسط ارتفاعها عن سطح البحر هو 780 كم تقريباً في وسط فلسطين التاريخية.

أورسالم أحد أقدم الأسماء للمدينة وهو أسم ذكر في كتابات رأس شمرة "أوغاريت" منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وأسم "سالم"، كما أتفق الباحثون، هو اسم آلهة سورية قديمة، إما شحر أو شالم فقد وصفا بأنهما ألهة الليل والنهار. وقد ظهر الاسم في مراسلات تل العمارنة المصرية خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد أيضاً وهذا يدلل على أهمية المدينة في تلك الفترة تحديداً وهي فترة هامة بالنسبة للعرب لأنها تسبق العصور الحديدية التي يزعم التوراتيون أنها فترة دخول "العبرانيين" إلى فلسطين. ويرد اسم "يبوس" في كثير من الكتب والمقالات على أنه أحد أقدم الأسماء لمدينة القدس إلا أنه في الحقيقة ليس سوى اسم مبتدع للمدينة من قبل محرري التوراة وتأليف ولا أساس تاريخي أو أثري له.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

تعتبر جغرافيا مدينة القدس أحد أقدم المواقع التي سكنها «البشر» خلال عصور ما قبل التاريخ حوالي 400 ألف عام و 50 ألف عام، أما الإنسان العاقل فقد سكن أرض المدينة بين 3500-4500 عام قبل الميلاد أي في العصر النحاسي والبرونزي المبكر. وقد كان أول من سكنها واستقر بها مجموعات بشرية رعوية. وقد استدل العلماء والمنقبون على هذه المعلومات الثمينة من خلال الموجودات الأثرية في القبور وتحت الركام ومن خلال بقايا العمارة «المنازل» والفخار الذي من خلاله يمكن للباحث في الأثار معرفة تاريخ الموقع الذي وجدت فيه الكسر الفخارية عن طريق الكثير من التقنيات العلمية المختلفة. في هذه الفترة كانت القدس عبارة عن قرية صغيرة لا تتجاوز مساحتها عدة هكتارات فقط. التغير الحقيقي في طبيعة القدس وتحولها إلى مدينة ضمن منظومة «دويلات المدن» حصل خلال الألف الثانية قبل الميلاد أي خلال فترة البرونز المتوسط حوالي 2000 قبل الميلاد. أهمية تحول القدس من قرية صغيرة إلى مدينة، أو إلى بلدة ثم مدينة،وأهمية ذكر فترات الإستقرار، هو استمرارية الاستقرار البشري في موقعها الحالي وعدم وجود انقطاع سكاني في الموقع خلال العصور المختلفة رغم طول المدة الزمنية، وهذا يعني عدم وجود فراغ بشري واستيطاني في القدس.

مدينة القدس

سكان منطقة القدس وكل سورية الكبرى أو بلاد الشام خلال العصور القديمة تشكلوا من مجموعتين رئيسيتين هما الأموريون، وهم «رعاة»، والكنعانيون، وهم من أهل المدن في غالبيتهم، وتركز وجودهم على سواحل البحر الأبيض المتوسط في فلسطين ولبنان، إضافة إلى الحوريين من شمال سورية، والمصريين. وقد جاء وجود المصريين بسبب السيطرة المصرية على جنوب بلاد الشام خلال الفترة الممتدة من 1200-1550 قبل الميلاد تقريباً، والمشترك الثقافي والحضاري بين هذه المجموعات كبير إن من ناحية اللغة والكتابة أو حتى الدين.

نشأت مدينة القدس كمدينة متكاملة المعالم المدنية خلال الفترة الممتدة من 1200-2000 قبل الميلاد وأزدهرت خلال فترة البرونز المتوسط أي 1600-2000 ق. م.، إذ كشفت الحفريات الأثرية أنها كانت تملك سوراً سمكه أكثر من ثلاثة أمتار إضافة إلى أبراج دفاعية ومبانٍ حجرية ومصاطب حجرية أيضاً. هذه الفترة تحديداً شهدت ازدهار منطقة فلسطين ككل وذلك بسبب النشاط التجاري النشط في المنطقة وبالتالي الاستقرار السياسي والاجتماعي. وتميزت هذه الفترة أيضاً بالعلاقات الدولية مع مصر وجزر البحر الأبيض المتوسط واليونان. لم تعثر البعثات الأثرية على أي دليل بأن المدينة كانت تحوي معلماً مقدساً متميزاً عن باقي مدن فلسطين، إذ أن القدس كانت مدينة كنعانية مزدهرة خلال فترة البرونز المتوسط وصولاً إلى فترة انهيار كل المنطقة والمنظومات الاقتصادية السياسية فيها بعد غزو شعوب البحر للمنطقة خلال القرن الحادي عشر قبل الميلاد. نظام دويلات المدن في جنوب بلاد الشام ولبنان كان هو النظام المسيطر والسائد، وشكّل ثقافة المنطقة عبر أكثر من ألفي عام كاملة من عمر المنطقة ككل، وعند انهياره حصلت فترة من الفوضى شملت كل المنطقة وصولاً إلى مصر والعراق حتى أقصى شمال سورية.وقد بقيت مدينة القدس محتفظة بموقعها كمستقَر لأهل المنطقة وإن تراجعت مساحتها المسكونة أو أختفت معالم مهمة كالأسوار فقد بقيت حاملاً سكانياً لأهل المنطقة تتراجع وتتقدم بحسب المحيط الحيوي لها.

مدينة القدس وجماعات "العابيرو"

شهدت مراسلات تل العمارنة على أن القدس كانت مدينة مهمة خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد، فقد ذكرت المراسلات اسم ملك القدس "عبد-خيبا"، وأشارت إلى أن المدينة كانت تحاول مد نفوذها بعد الضعف الذي أصاب الدولة المصرية الحديثة خلال حكم الملك "أخناتون"، وأنها كباقي مدن المنطقة تعرضت لغزوات الجماعات البدوية والمرتزقة التي سميت في نص مراسلات تل العمارنة المصرية بـ"العابيرو" أو "الخابيري" وجماعات "الساشو" التي يعتقد أنها قدمت من جنوب الأردن من عمق المناطق الصحراوية إذ أن أقرب توصيف علمي وبحثي لهذه الجماعات أنها كانت جماعات بدوية خارجة عن القانون أو أنها كانت جماعات مهمشة اقتصادياً، وبالتالي اجتماعياً، انتهزت فرصة ضعف السلطة المصرية على المنطقة وضعف المدن الفلسطينية وغيرها من المدن واستغلت الصراع الدائر بين ملوك هذه المدن بأنها أوجدت لنفسها مساحة من الفراغ السياسي سمح لها بالتسلل بشكل عنيف وحربي لكي تضع لها موضع قدمٍ في المناطق الأقرب إلى الساحل والمناطق الزراعية، أو أنها خليط من الجماعات السكانية التي وجدت هدفاً مشتركاً يجمعها وهو التمرد على السلطة المصرية وعلى المدن والسلطة في المنطقة.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

ولا يوجد دليل بأن هذه الجماعات قد وفدت على المنطقة وتحديداً فلسطين والأردن من الخارج، فقد ذُكرت تلك الجماعات في مراسلات تل العمارنة بشكلٍ يوحي بأن الجميع، من مصريين وكنعانيين، يعرف من تكون. ووفق الترجمة من اللغة الأكدية التي كتبت بها المراسلات إلى اللغة الأنجليزية فقد تكون كلمة "عابيرو" أو "خابيري" هي توصيف لجماعات ديموغرافية وظيفية أي أن المسمى هو اجتماعي لا عرقي، فبحسب المراسلات أيضاً يتضح أنه كان هناك اتصال مع هذه الجماعات بالرغم من أنها جماعات غير مرغوب فيها من قبل الدولة المصرية ومدن فلسطين إلا أن الاتصال كان حاصلاً بين ملوك المدن الفلسطينية وبين "العابيرو" في أكثر من حادثة ذكرتها المراسلات.

سقوط نظام دويلات المدن لم يولد فراغاً سكانياً في المنطقة بل على العكس تماماً فقد أصبحت المنطقة -هنا نريد فلسطين- مغناطيساً للجماعات البشرية من المناطق المجاورة لأسباب عديدة منها عدم وجود سلطة مركزية، فالسيطرة المصرية انتهت تماماً. ويعتقد أن جماعات شعوب البحر التي غالباً قد جاءت إلى المنطقة من جزر ايطاليا ذابت في المدن الفلسطينية وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من المنطقة ومن هويتها الثقافية التاريخية. ومدينة القدس ضمن هذه الرؤية التاريخية كانت إحدى المدن الرئيسية في فترات البرونز المتوسط والمتأخر وقد انهارت كنظام اقتصادي-سياسي مع الانهيار الذي أصاب المنطقة خلال القرن الحادي عشر قبل الميلاد. سكان مدينة القدس عبر التاريخ هم أهل المنطقة من كنعانيين وأموريين وحوريين وغيرهم من قبائل وأهل بلاد الشام وما حولها من جماعات لها صفات اجتماعية وثقافية لا تختلف عن بعضها سوى بالخصوصيات التي تصبغ أي جماعة بحسب البيئة والجغرافيا في أي منطقة في العالم.

حاول علماء الآثار التوراتيون خلال القرن التاسع عشر وصولاً إلى الأربعينيات من القرن الماضي إسقاط النص التوراتي على جغرافية فلسطين والمنطقة من خلال منهجيات غير علمية أو من خلال التلاعب بالنتائج العلمية لصالح النص التوراتي. إلا أن فترة الخمسينيات وصولاً إلى السبعينيات من القرن الماضي كانت فترة سقوط هذه المنهجية المنحرفة علمياً. فقد ساهمت التنقيبات الأثرية بإسقاط كل ما ذكر داخل نصوص الأسفار التوراتية ومنها نظرية "أولبرايت" و"نلسون جلوك" حول الفراغ السكاني والحضاري لمنطقة شرق نهر الأردن مثلاً لنلسون جلوك، أو الفترة الزمنية لوجود "الإسرائيليين" في فلسطين خلال فترات البرونز والحديد كما حاول أولبرايت.

فشلت كل محاولات علماء الأثار التوراتيين في الوصول لأي نتيجة تذكر حول وجود مدينة القدس التوراتية التي تقع ضمن ما يسمى "مملكة اسرائيل"، مملكة "داود وسليمان"، إذ أن اللقى الأثرية كانت جداً بسيطة خلال هذه الفترة المنشودة في التوراة منذ الألف الأول قبل الميلاد وصولاً إلى السبي البابلي 586 قبل الميلاد. فما حصل في القدس خلال هذه الفترة، والفترة التي سبقتها خلال السيطرة الآشورية على المنطقة، كان بسبب مصلحة الأشوريين ومن بعدهم البابليين "الكلدان" في السيطرة على المنطقة للوصول إلى مصر، فالقدس في هذه الفترة تَبيَّن كما تثبت الأثار أنها، على عكس ما ترويه التوراة من أنها كانت "أورشليم" المتخيلة في عقول محرري التوراة، لم تكن سوى بلدة أو مدينة صغيرة في فترة العصور الحديدية،ولم ترقَ لأن تكون مدينة كما كانت في العصر البرونزي المتوسط والمتأخر، وأن ما يسمى "مملكة اسرائيل" لم تكن مملكة أو دولة في الحقيقة، بل لم تتعدَ كونها بلدة أو مدينة صغيرة في أفضل الأحوال لأهل المنطقة أنفسهم لا لأناسٍ أغراب عن المنطقة "إسرائيليين"، وما يُروى عن السبي الأشوري، ومن ثم السبي البابلي، فهي سياسة متبعة من قبل الآشوريين والبابليين "الكلدان" لكل المناطق والمدن التي تقف في وجه جحافلهم، ولم تكن موجهة ضد جماعة أو عشيرة معينة.

عروبة القدس هي الهوية الوحيدة للقدس عبر التاريخ، وعروبة القدس تعني بشكل واضح أنها كما كل فلسطين أرض لأهلها ولم تكن يوماً سوى لأهلها الذين هم أول من سكنوها قبل 7 ألاف عام إلى يومنا هذا. والخطر الذي يحاصر القدس وأهلها هو عملية تهويد المدينة من قبل سلطات الاحتلال الصهيوني ومن قبل مزوري التاريخ الأجانب والعرب من خلال الروايات الدينية التي أثبت عدم صحتها علمياً ولا أحد يتحدث اعتماداً عليها سوى الجهلة والمتطرفين من الصهاينة والجهلة من مرددي التفاهات والهراء والأساطير في وطننا العربي. خصوصية المدينة عند المسيحيين والمسلمين لا يجوز أن تطغى على هويتها العربية القديمة والحديثة فالقدس تاريخها واضحٌ وصريح، ومن لم يستطع رؤيته فالعمى قد أصاب عيونه لا عيون القدس فهي براقة ساطعة كما سطوع الشمس في وضح النهار.

طلقة تنوير
العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

عبد الكريم الخطابي والقضية الفلسطينية: الصفحة المُغيّبة من تاريخها النضالي

إبراهيم حرشاوي

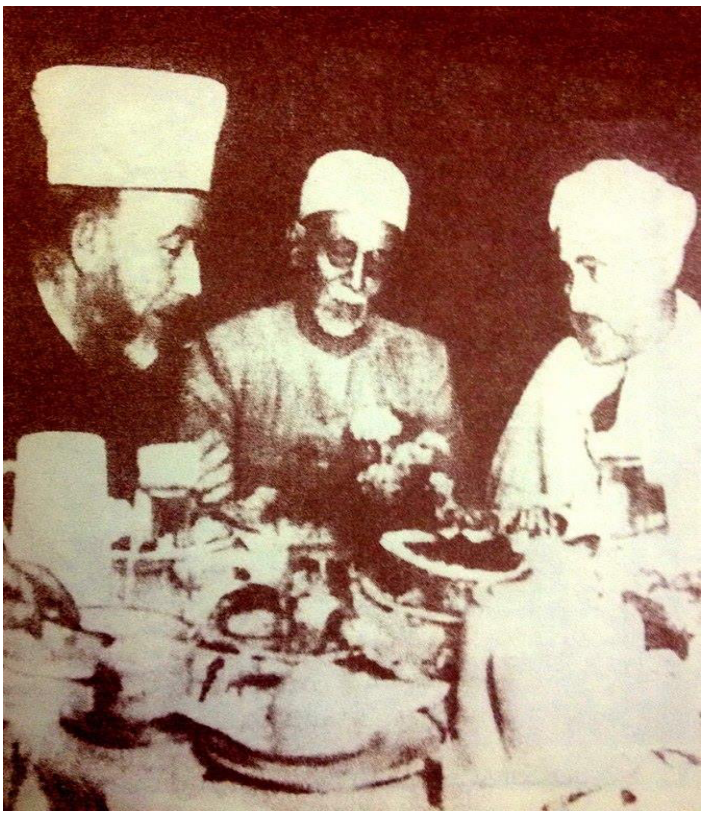

يرجع التفاعل الشعبي المغربي المعاصر مع القضية الفلسطينية إلى نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات من القرن الماضي حيث رُصدت أول حركة تضامنية منظمة في المغرب عقب اِندلاع "ثورة البراق" سنة 1929م في مدينة القدس. فقد شهد المغرب، إثر اِندلاع ثورة البراق، حراكاً شعبياً واسعاً شمل عدداً من المدن المغربية كفاس وتطوان وسلا، كما تمّ رفع مذكرة احتجاج إلى القنصل البريطاني عبّر فيها المحتجّون المغاربة عن سخَطهم لما وصلت إليه الأمور في فلسطين. وقد تصادفت هذه الأحداث مع تواجد بعثة الطلاب المغاربة في مدرسة النجاح بنابلس، وهم طلاب تتلمذوا على يد مفكرين ومثقفين فلسطينيين من أمثال أكرم زعيتر ومحمد عزة دروزة والشيخ عبد الحميد السائح...إلخ، الأمر الذي ساهم إلى حدٍ بعيدٍ في توعية نخبة الحركة الوطنية المغربية الصاعدة وقتذاك بالخلفية القومية للقضايا العربية وعلى رأسها القضية الفلسطينية. وقد وثّق أحد قادة الحركة الوطنية المغربية، المهدي بنونة، في مذكّراته حجم تأثير أحداث الثلاثينيات بالطلاب المغاربة، حيث كتب في هذا المضمار: "كان تأثرنا مزدوجاً بالعمل الفلسطيني الفدائي. فقد رسم لنا معالم طريق يمكن أن نسلكه حين نعود إلى المغرب. ومن جهة أخرى خلق بيننا وبين إخوتنا الطلاب الفلسطينيين رباطاً متيناً واندماجاً كاملاً في القضية".

أما بخصوص العلاقة بين فلسطين وزعيم المقاومة المغربية عبد الكريم الخطابي، فترجع إلى حرب ثورة الريف ضد الاستعمار الإسباني التي دارت رحاها بداية العشرينيات من القرن الماضي، حيث سُجلت حملات تضامنية في فلسطين طيلة فترة ثورة الريف المغربي على شاكلة مظاهرات وجمع تبرعات قادتها رموز وطنية فلسطينية في تلك الفترة من طراز الشهيد عز الدين القسام ومفتي يافا الشيخ توفيق الدجاني. وقد وصل صدى الدعم الفلسطيني إلى حد الميدان الأدبي، إذ نَظَم الشاعر الفلسطيني الكبير إبراهيم طوقان نشيداً تحت عنوان " في ثنايا العجاج" أهداه إلى عبد الكريم الخطابي، والذي عُرف بنشيد الريف ومطلعه كالآتي :

في ثنايا العجاج والتحام السيوف
بينما الجو داج والمنايا تطوف
يتهادى نسيم
فيه أزكى سلام
نحو عبد الكريم
الأمير الهمام
ريفنا كالعرين
نحن فيه الأسود
ريفنا نحميه

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

واستمرّ تأثير عبد الكريم الخطابي في المشرق العربي وتحديداً في بلاد الشام بعدما أصبحت ثورته ضد الاستعمار الإسباني نموذجاً ومصدر إلهام للكثير من الشخصيات الوطنية والقومية العربية. وقد تمّت دعوته من طرف مفتي القدس الحاج أمين الحسيني للمشاركة في مؤتمر القدس الأول سنة 1931، إلا أنه لم يتمكن من المشاركة بسبب إخضاعه للإقامة الجبرية لدى المستعمر الفرنسي في جزيرة لاريينيون. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى المقاوم الشامي فوزي القاوقجي الذي تأثّر بانتصارات مقاومة عبد الكريم الخطابي، ما شجعه لقيادة ثورة حماة سنة 1925م التي كانت حلقة رئيسية من حلقات الثورة السورية الكبرى. وفي ما جاء في رسالته (بتاريخ 1947/6/7) إلى الخطابي ما يؤكد على ذلك: "إنّ الأمة العربية قدر لها أن تقرَّ عيناً بنجاتكم وكأنها هي التي انطلقت من إسارها، وذلك لأنكم سيدي الأخ العربي الذي ألقى عليها الدرس الأول في كيفية العمل للخلاص. فكنتم القدوة لمن ينشد تحرير الوطن، وأنك أنت الذي برهن للدنيا على حيوية هذه الأمة وقيمتها، وفرض على العالم بل على التاريخ احترامه".

تعقب هذه المرحلة من مسيرة عبد الكريم الخطابي النضالية مرحلة ما بعد المنفى بعدما تمكن من اللجوء إلى مصر، حيث تزعّم المشهد السياسي المغاربي في القاهرة مع تأسيسه للجنة تحرير المغرب العربي في شهر كانون الثاني / يناير لسنة 1948، أي بعد عدة أسابيع من صدور قرار 181 من الجمعية العامة للأمم المتحدة الرامي إلى تجزئة فلسطين وتهويدها. وهو الحدث الذي جعل عبد الكريم الخطابي يوجه نداءً إلى الأمة العربية والإسلامية داعياً فيه إلى الجهاد لتحرير فلسطين. وهذا ما يفسّر خاتمة البيان التأسيسي للجنة تحرير المغرب العربي المصوغ من قبله، حيث عبّر عن تأييد مجاهدي فلسطين كونها القضية المركزية للأمة، وقد جاء في ذلك النص حرفياً ما يلي : "ويسرّني في الختام أن أحيي إخواننا مجاهدي فلسطين الشقيقة، داعياً لهم بالفوز والنصر، ومؤكداً لهم تضامن الأقطار المغربية معهم، وعزمها اتخاذ جميع الوسائل الممكنة للاشتراك في إنقاذ بلادهم والمحافظة على عروبتها ووحدتها".

لقد تصدّرت القضية الفلسطينية على الصعيد العربي أولويات لجنة التحرير، وقد صرّح الخطابي للإعلام فور وصوله إلى قناة السويس بأنّ " فلسطين بلاد عربية ولا بدّ أن تبقى عربية" معبّراً بذلك عن إيمانه القوي بعروبة فلسطين وبأنّ أي اعتداء على جزءٍ من الوطن العربي هو اعتداءٌ على الوطن برمّته. وقد أكّد على أولوية القضية الفلسطينية ضمن برنامجه السياسي في تصريح له للصحافة بعد لقاء جمع بينه وبين أمين عام الجامعة العربية يوم 9 أيول/ سبتمبر 1947م حيث قال: "القضية الفلسطينية تحتل المكان الأول، والأعمال الآن أولى من الأقوال، وأن الأيام المقبلة ستظهر أعمالنا".

وبعد تأسيس لجنة التحرير قام الخطابي ببلورة رؤية شاملة تتعلق بتحرير فلسطين، مفادها التركيز على التنظيم العسكري والتنفيذ الدقيق لخطة التحرير معتبراً مشكلة فلسطين مسألة "سهلة" مقارنة بالقوة التي يملكها العرب بشرط تضافر القوى وتوحيد الجهود في فلسطين أولاً وفي العالم العربي ثانياً. وقد عبّر عن ذلك في موقفه الذي أدلى به لمجلة الأمانة المصرية (كانون الثاني/يناير 1948م): " في مقدور العالم العربي بمجرد اجتماع كلمته وتوحيد فكره، وجمع شمله أن يصعقهم ويذهب بريحهم إلى الأبد". أمّا في موقفٍ آخر كان قد صرّح به لمجلة "العالم العربي" المصرية بشهر تموز/يوليو 1948م، أي أثناء استئناف معارك حرب 1948م، فقد حثّ على الكفاح المسلّح حيث قال: "ما دام هذا العصر يضيع فيه الحق إذا لم تسانده قوة، ويظاهره سلاح وعتاد، ويتكتل فيه الرجال شيباً وشباباً(...)، فالواجب يفرض أن نتكلم بالسيف لندفع عنا الظلم والحيف".

ومع اندلاع الحرب لم تُتح الفرصة لعبد الكريم الخطابي للمشاركة ميدانياً في القتال، لكنّه قام بدوره القيادي من خلال توجيه مجموعة من المتطوعين القادمين من المغرب العربي واحتفاظه بخريطة ميدانية لفلسطين ليتتبع تحركات الجيوش العربية. وكان من المعروف ساعتها أنه لم يستحسن فكرة مشاركة الجيوش العربية في القتال، لأنه في حالة حصول خلافات بين الجيوش العربية فإن ذلك قد ينعكس لصالح العصابات الصهيونية، ولهذا السبب كان يرى الخطابي أن على الفلسطينيين أن يتكفّلوا بالدور القتالي بينما ينبغي أن يقتصر دور الحكومات العربية على إمداد الشعب الفلسطيني بالسلاح والعتاد.

أمّا بخصوص مشاركة المتطوعين المغاربة في حرب 1948 تحت إمرة عبد الكريم الخطابي، فتنبغي الإشارة إلى دور العقيد المغربي الهاشمي الطود الذي عانى الكثير في اجتيازه الحدود والسير آلاف الكيلومترات على الأقدام للالتحاق بجبهة فلسطين. ويذكر الطود أن أغلبية المجاهدين وقتها كانوا من ليبيا، وبقيتهم من المغرب والجزائر وتونس.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

وقد كان عدد المتطوعين المغاربة حسب معلومات الطود 12 مجاهداً كان من بينهم الأستاذ عبد الكريم الفلالي والمقرئ المجيد والأستاذ الحاج البرنوصي وعمر الوزاني. ويروي الهاشمي الطود أحداث الحرب مع رفاقه المجاهدين من المغرب العربي في إحدى شهاداته: "قاتلنا أولاً في موقع البريج جنوب غزة، حيث واجهت وحدتنا في أكثر من موقع عصابات الهاغانا... ثم تقدّمت وحدتنا داخل التراب الفلسطيني حتى مدينة غزة حيث مكثنا لمدة 15 يوماً لنستقر بعد ذلك في منطقة بربرة قبالة مستعمرة نتساريم، الواقعة في الرأس الشرقي لمثلث أسدود-عسقلان – بربرة على مسافة 36 كم من تل أبيب". وقد كانت استراتيجية المجاهدين العرب آنذاك تقوم على قطع الإمداد عن التجمعات السكانية الصهيونية الكبرى في القدس وتل أبيب وغيرها من المراكز التي كانت لهم فيها كثافة سكانية مرتفعة، لذلك سميت تلك الحرب بـ"معركة الطرق". ومع انتهاء الحرب في فلسطين أعطى الخطابي أوامره للهاشمي الطود ورفاقه بالانسحاب من غزة، ووجّههم نحو التأهيل العسكري في العراق ليتمّ تجهيزهم للمهام التحررية في المغرب العربي الملقاة على عاتقهم.

تظهر هذه المرحلة مركزية القضية الفلسطينية وأهميتها لدى الحركة الوطنية المغربية، كما أنها تثبّت الدور الرائد الذي لعبه المجاهد عبد الكريم الخطابي في الحركة التحررية العربية. إنها الحقيقة التاريخية والموضوعية التي تتناقض مع التجيير الممنهج الذي تتعرض له رمزيته من قبل "الحركة الأمازيغية" في المغرب منذ عقود بغرض تحويله من بطل عربي وأممي إلى " أيقونة" قومية أمازيغية مشوّهة، برغم أنّ مسيرته النضالية كانت تتسم بتوجهٍ وحدوي على المستوى المغربي والمغاربي والعربي. إنّ هذا التلاعب والتقزيم يجعل معركة إنقاذ واستعادة الرمزية التي يمثّلها تاريخ عبد الكريم الخطابي معركةً لا تقل أهمية عن معركة صدّ وتعرية مشروع "الشرق الأوسط الجديد" في منطقة المغرب العربي المتمثّل في الحركات الشعوبية والأصولية.

مراجع:

- العربي مفضال،عبد الإله بلقزيز، أمينة البقالي، الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية 1986-1947: محاولة في التاريخ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،1992م.

- محمد أمزيان، عبد الكريم الخطابي: آراء ومواقف، صوت الديمقراطيين المغاربة بهولندا، لاهاي، 2003م.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

شخصية العدد: الثوري الرافض لنهج التسوية مع العدو الصهيوني ـ وديع حداد

نسرين الصغير

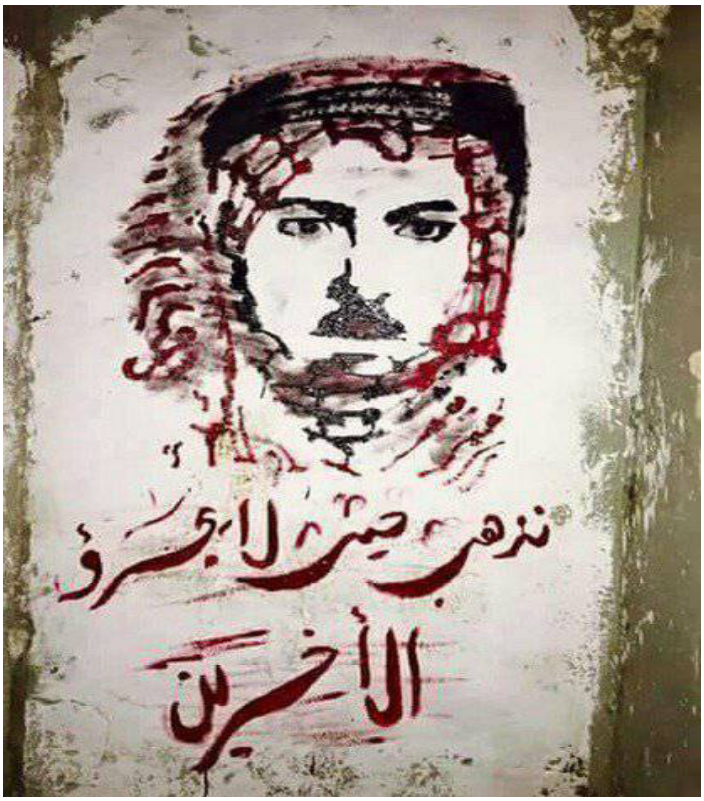

ولد وديع حداد، أو أبو هاني، في مدينة صفد عام 1927، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدينة حيفا حيث كان يعمل والده الذي كان يُدّرس اللغة العربية، وبعد احتلال فلسطين عام 1948 اضطر للهجرة مع عائلته لمدينة بيروت وخلال تواجده هناك بدأ دراسة الطب في الجامعة الأمريكية في بيروت وتزوج من السيدة سامية نعمة حداد في دمشق.

خلال دراسته انخرط وديع في العديد من الجمعيات والنشاطات المدافعة عن القضية الفلسطينية من بينها جمعية ''العروة الوثقى'' التي كانت تلعب دوراً سياسياً بعد انخراط الشباب القومي العربي المتحمس فيها، إلى أن تولى البطل موقعاً قيادياً في تلك الجمعية، وبعد تخرجه من كلية الطب انتقل وديع حداد وجورج حبش للأردن للعمل في الأنروا عام 1956 وقاما بفتح عيادة للعلاج المجاني في وسط البلد (سقف السيل)، ومن خلال العيادة كانا يمارسان دورهما النضالي وكانا يعتبران أن عملهم الرئيسي هو تسيّيس اللاجئين الفلسطينين وممارسة النشاط القومي الوطني، إلى جانب العمل الطبي، وذلك بالتعرف على الناس والانخراط معهم بالإضافة إلى حثهم على دورهم النضالي الواجب عليهم تقديمه تجاه القضية الفلسطينية. وقد اعتقل وديع حداد في نيسان 1957 بعد الانقلاب على حكومة سليمان النابلسي في الأردن، وأمضى ثلاث سنوات في سجن الجفر الصحراوي، ثم استطاع أن يهرب إلى سورية عام 1961حيث استقر فترة بعدها، وقد قاد بنفسه عملية اختطاف جورج حبش من سجن عسكري سوري بعد الانفصال حيث كان مُقرراً إعدام صديقه ورفيق دربه الحكيم بسبب تأييده لعبد الناصر، وبعد انتهاء الوحدة المصرية السورية انتقل حداد وعاد لبيروت وتولى مسؤولية العمل العسكري لكل فروع حركة القوميين العرب، وبعد تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عام 1967 تولى حداد مهمتين رئيسيتين هما المالية والعمل العسكري الخارجي.

انتقلت القضية الفلسطينية بعد وديع حداد للمرحلة العملية والعالمية وذلك بسبب قناعته أنه لا يمكن ضرب الكيان الصهيوني وهزيمته إلا إذا أوجع من يدعمه وكان يعتبر الكيان الصهيوني ولاية أمريكية في المنطقة. اختلف حداد مع بعض القيادات الفلسطينية والتي كانت في النهاية من الرعاة الرسميين للعملية الاستسلامية مع الكيان الصهيوني، وقد كان خلاف حداد مع بعض الذين كانوا يهتمون زيادة عن اللزوم بما يسمى''الرأي العام العالمي''، فقد كان يبحث عن أهداف صهيونية في أوروبا وكل بقاع الأرض وهو ما اعتبره البعض ''خطأً جسيماً'' من قبل حداد، لكن حداد الذي اعتبر الاحتلال الصهيوني وعمليات تهجير وقتل الشعب العربي الفلسطيني لا تختلف عما حصل مع الهنود الحمر في القارة الأمريكية، وهنا انتقل وديع حداد بالقضية الفلسطينية إلى مرحلة جديدة عنوانها''وراء العدو في كل مكان''، ولذلك عمل على قيام أوسع تحالف عالمي مع الجبهات الثورية الصغيرة المؤمنة بالمشاركة في النضال ضد الإمبريالية والرأسمالية العالمية الداعمة للكيان الصهيوني في بلادها من خلال الانخراط في النضال الثوري العالمي وحركات التحرر الوطني، وهنا كانت إضافة حداد الغنية للعمل الثوري العالمي ناسجاً منظومة من التحالفات الثورية العالمية التي أعطت زخماً للقضية الفلسطينية من جهة، وللمناضلين الفلسطينيين والعرب في النضال الأممي.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

كان من أهم العلاقات التي نسجها حداد مع الجبهات الثورية العالمية تلك التي نسجها مع الجيش الأحمر الألماني والجيش الأحمر الياباني، وقد جاءت عملية مطار اللد تتويجاً لهذه العلاقة الثورية بين الجيش الأحمر الياباني والجبهة الشعبية، ومن أبرز تلاميذ حداد الأسير الحر الفنزويلي في فرنسا "كارلوس الثعلب"، ولم يكن حداد منطوياً على القضية الفلسطينية فحسب بل كان له دور أيضاً في ثورة اليمن وفي ليبيا والجزائر ومصر كذلك.

عام 1968 صدر أول بيان يعلن خطف طائرة العال الصهيونية ثم طائرة "بان أميركان" عام 1969 وتلتها ثلاث طائرات هبطت في الأردن عام 1970 تم تفجيرها بعد إخراج الركاب منها، وفي عام 1971 توجهت مجموعات من خارج فلسطين المحتلة لتضرب أهداف داخل الأرض المحتلة وتنقل الأسلحة عبر صحراء النقب وهنا بدأت شعلة الثورة العالمية حيث استنفر الثوريون في العالم وشنوا عشرات العمليات على أهداف صهيونية وإمبريالية في أكثر من عشرة بلدان عربية وأجنبية.

تولى حسين القلا المسؤولية المالية المركزية في الجبهة الشعبية بدلاً لوديع بعد اتهام أبي أحمد يونس وحسين القلا بتبذير أموال الجبهة على العمليات الخارجية التي يقودها حداد، وبعد سنوات من النضال والكفاح المسلح على كافة خطوط التماس العالمية وبناءً على شعار وراء العدو في كل مكان وبالأخص في عام 1972 اتخذت الجبهة الشعبية قراراً بوقف عمليات خطف الطائرات بعد خطف طائرة "اللوفتهانزا" إلى عدن التي تم الإفراج عن ركابها بعد قبض خمسة ملايين دولار، هنا بدأت الخلافات داخل الجبهة الشعبية، وتم إيقاف العمليات الخارجية، واختلف الوديع مع رفاقه في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وتعهد بأن يستمر ويواصل نهج الكفاح المسلح في كل بقاع الأرض.

اعتبرت الجبهة الشعبية أن الهدف من العمليات الخارجية هو أن تصبح القضية الفلسطينية مفهومة وواضحة للعالم واعتبروا أن الاستمرار بمثل هذه العمليات سيلحق الضرر بالقضية الفلسطينية ويسمها بالارهاب لهذا تم إقرار وقف العمليات العسكرية الخارجية مثل خطف الطائرات وتفجير المطارات وغيره، فرفض وديع وأعلن عدم التزامه بقرارات رفاقه واتخذت الجبهة الشعبية قراراً بفصله من الجبهة هو ومن معه، وبعد وفاة وديع نعاه رفيقه وصديقه جورج حبش وقال أن حداد لايزال عضواً في قيادتها المركزية ومكتبها السياسي، تعبيراً عن الوفاء له، مع أن حداد منذ عام 1972 وحتى وفاته، أي عام 1978، لم يتواصل مع الجبهة بشكل رسمي ولم ينسق أي عمل ثوري معها.

في عام الـ 1978 بدأت تُكتب النهاية لحياة مناضل فذ وغير عادي حين بدأ يعاني من مرض مجهول في بغداد وانتقل للعلاج في ألمانيا الشرقية التي أعلن منها خبر وفاته وقال البعض أن المرض الذي عانى منه وديع هو مرض عضال، لكن وبعد عشرات السنوات على وفاته أعلن الموساد "الإسرائيلي" أنه قام بعملية اغتيال وديع حداد وذلك بدس سُم بطيء المفعول في في نوع من الشوكلاته البلجيكية التي كان يحبها والتي تم إيصالها له عبر عميل موساد عربي الجنسية كان يعمل معه وكان قرار اغتياله متخذاً على أثر عملية عنتيبي في أوغندا سنة 1976.

حداد الرافض للتهدئة والهدنة والتسوية بدأ حياته مناضلاً وأنهاها شهيداً، لم يكن انتماؤه لأي حزب أو جبهة أقوى من انتمائه لفلسطين، فعندما اتخذت الجبهة الشعبية وقف العمليات الثورية في الخارج رفض هذا القرار واستمر في نضاله هو ومن معه، وظل وديع حداد على نهجه مؤمناً بالعمل الثوري والكفاح المسلح الذي لا بديل عنه لتحرير فلسطين وأن حلول التسوية استسلامية، وأن العدو يجب أن يُضرب ليس فقط في الداخل الفلسطيني المحتل بل في كل بقاع الأرض وأن يضرب كل من يدعم ويتعاون مع الكيان الصهيوني.

فكم من وديع حداد نحتاج اليوم!!!

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

تجذير مشروع المقاومة يبدأ بالتخلص من «مركزية البيت الأبيض»

السيد شبل

القناعة الثابتة هي أنّ (سلاح المقاومة) هو القانون الدولي وهو السبيل الوحيد للتحرير.. لكن التصويت الذي جرى بالأمم المتحدة مؤخراً لصالح القرار الذي يدعو واشنطن لإلغاء اعترافها بالقدس المحتلة عاصمة للكيان الصهيوني (أي رفض ما قام به دونالد ترَمب من تفعيل لقرار الكونغرس المُتخَذ في العام 1995، وتقريره نقل السفارة من يافا المحتلّة وضواحيها إلى القدس المحتلّة)، والذي جاءت نتيجة مؤيديه 128 من أصل 193 دولة.. تؤكّد شيئاً واحداً، وهو أن أغلب العالم مع قضيتنا الفلسطينية (خاصة أن عدداً من مؤيدي الأمريكي ورافضي القرار دولٌ هامشيّة وصغيرة ومجهولة)، لكن الأزمة أن النظام الرسمي العربي، في عمومه، هو الذي ليس مع العالم (بمعناه الواسع.. بمعناه الذي تجسّد تاريخياً، مثلاً، في مؤتمر باندونغ في 1955..).

وحين صار العالم السياسي بالنسبة لنا هو «واشنطن».. وتمركز في عقولنا أن العالم هو «أمريكا الشمالية وغرب أوروبا» ضعنا وتُهنا وعجزنا عن تحديد الجبهة التي يمكن أن نتحالف معها ونتعاضد وإيّاها!.

العالم واسعٌ جداً، والبشر يملأونه من شرقه لغربه، ومن جنوبه لشماله.. (7,6 مليار نسمة في خمس قارات.. منهم أكثر من 6 مليار في آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية وحدهم)، فلماذا نحصره في مساحة بعينها؟!، حتى على المستوى الثقافي والفني (انظر إلى أي حد يهيمن الفيلم الأمريكي في غياب شبه كامل للفيلم الأفريقي والصيني والروسي والإيراني واللاتيني!!)، وليست هذه دعوة للقطع مع الغرب بالمعنى الحضاري أو تأسيس لحالة تصارعيّة شعبيّة (كما أراد صامويل هنتنجتون والسي آي إيه)، وإنما دعوة للتخلي عن مركزيّة الغرب تحديداً بالشق السياسي، وتفتيت خلفيات ذلك على المستوى النفسي.

صحيح أن الـ 128 دولة التي اصطفّت إلى جوار فلسطينيّة «القدس الشرقية» لن يكونوا إلى جوارنا، تماماً، لو طالبنا بعروبة فلسطين من النهر للبحر، وبالحق كاملاً غير مجزّأ، وبأن يسترد أصحاب الأرض أرضهم غير منقوصة.. خاصة دول أوروبا الغربية، لكن بقية العالم خارج «حلف الناتو»، مثلاً، سيتعاطى معنا (الشعوب على الأقل: تأمّل النظرة الشعبية العالم ثالثيّة الإيجابية للكوريين الشماليين اليوم كثمرة لصمودهم)، وسيطوّر العالم (خارج البيت الأبيض وعواصم غرب أوروبا وطوكيو وعدد من التوابع) موقفه بناء على ثبات نضالنا واتساعه وتجذّره. وفي يوم ما قطعت معظم دول الكتلة الاشتراكية علاقتها مع العدو الصهيوني تأييداً للعرب بعد يونيو 67.

تجربة ما جرى بالأمم المتحدة تؤكّد أن الفرشة الأمميّة بصفّ قضية فلسطين، لكن علينا نحن أن نكون بصفّها كما يجب لأصحابها أن يكونوا أي بالسلاح والدم الصادق.

ثمة أقطاب جديدة تنمو بالعالم.. ونحن أيضاً يجب أن ننمو معهم.. ويجب أن نحتلّ مساحتنا، ونفهم أن قضايانا المحليّة والقوميّة، جزء لا يتجزّأ من صراع عام ضد منظومة نهب خارجية مركزها «البيت الأبيض»، وإن حددنا الأمر على هذا النحو سنفهم أن لنا رفاق وحلفاء يمتدّون على سطح هذا الكوكب من بيونغ يانغ الكوريّة، وحتى لاباز البوليفيّة..

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

وهؤلاء لم يتأخّروا عن تقديم الدعم للقضية الفلسطينية في أي مناسبة، لأنهم رأوها كجزء من صراعهم المركزي ضد قوى النهب والتوسّع الأورو-أمريكية، وعلينا بالمقابل أن نوسّع العلاقات مع هذه الجبهة (هل يُعقل أن تكون معظم الأقطار العربية قاطعة لعلاقتها مع كوريا الديمقراطية، وهي الدولة العالمية الأكثر جذرية في رفض "إسرائيل" وصاحبة المواقف التاريخية الداعمة للعرب منذ تأميم القناة في 1956؟!، وهل يُعقل أن يبقى إعلامنا العربي محايداً وهو ينقل أحداث المؤامرة التي تجري في فنزويلا والتي يُراد عبرها الانقلاب على النهج الشافيزي.. هل نُدرك معنى انتصار المعسكر اليميني المتأمرك هناك وانعكاس ذلك على القضية الفلسطينية، مثلاً؟!) كما علينا أن ننقل قضيتنا خطوة أكثر للأمام عبر تعميق نضالنا وتجذيره وأن نُمركز الخيار المسلّح بالمقاومة.

الاستمرار في طرق أبواب البيت الأبيض، أو تصّور أن الحل دوماً أمريكي.. هو الهزيمة بعينها، وهو الخط الساداتي الذي علينا أن نكفُر به، الولايات المتحدة هي حاضنة الكيان الصهيوني والمستثمر الأول فيه، وتوظّفه كقاعدة عسكرية مغروسة في قلب الوطن العربي والمنطقة لتأديب من لا ترضى عنه، ولإعاقة أي مشروع للوحدة أو التقريب؛ أما الشعب الأمريكي، والأوروبي نسبياً، فهو واقع تحت تأثيرات مختلفة تجعل زاوية قراءته للقضية الفلسطينية مختلفة كلية وتعزل قطاعات معتبرة منه عن التضامن، فهناك أولاً: دور الأصوليّة البروتستانتية الإنجيلية «المسيحية الصهيونية» وقراءتها التدبيريّة، التي انتهت بها إلى الإيمان بضرورة وجود يهودي في فلسطين حتى يمهّد ذلك لـ«عودة المسيح»، وهناك ثانياً، الأفكار الدينية المنتشرة عامة والتي تقبل بلا تحفظ الدين اليهودي، وتقرّ بمظلومية اليهود التاريخية على أيدٍ مسيحية، وتناصر "إسرائيل" على هذا الأساس، باعتبارها مجتمع يشاركها القيم؛ وهناك ثالثاً، وهذا مهم جداً، الشقّ المتعلّق بنظرة الغربي للكيان الصهيوني على أنه جزيرة «حداثيّة ومتطوّرة ومؤسسيّة وعلميّة» وسط محيط «رجعي ومتأخّر وغيبيّ..»، دون أن يسأل الأمريكي ذاته من المسؤول عن قدر معتبر من هذا التأخّر؟!، ومن حارب مشاريع الصعود من محمد علي إلى جمال عبد الناصر، ومن ثورة اليمن (شمالاً وجنوباً) إلى عراق (عبد الكريم قاسم والبكر)؟!، ومن هو الطرف الذي وضع يده في يد أكثر أنظمة الحكم العربية رجعيّة بالخليج وعوّمها على سطح الإقليم؟!، ومن هو الذي تحالف مع الإسلام السياسي واحتضنهم في ألمانيا (عصام العطار السوري، وسعيد رمضان المصري.. وإلخ) واستخدمهم في صراعه مع السوفيت تارة ومع كل نظام طمح نحو الاستقلال؟!، ومن الذي دعم "المجاهدين" في أفغانستان والشيشان ويوغوسلافيا.. وسلّحهم وأعطى أوامره للنظم التابعة له باحتضانهم ودعم البيئة التي تنتجهم؟!، ومن الذي يحتضن في عاصمته اللندنية عشرات المتطرفين، ويسمح لهم بتأسيس مراكز والظهور بالفضائيات؟!، ومن الذي لا يزال يُغرق دول الجنوب بالمال التبشيري، ويزكّي النيران الطائفيّة؟!، ومن الذي يناهض أي نزعة ماديّة واقعية تستحث هذا المجتمع للنظر إلى تحدياته الاجتماعية والسياسية؟!.

القضية الفلسطينية هي ثمرة مشروع مقاومة عام، وهي قاطرة هذا المشروع في الآن ذاته.. وعندما تجد المُنتَج الأمريكي/الغربي يخترق الوطن العربي إلى هذا الحد، وتجد تقهقراً عاماً في الصناعة الوطنية، وعندما يتسيّد إعلام النظم الخليجيّة على ساحة الإعلام العربي.. فهذا مؤشّر على أن مشروع المقاومة ذاته مُهتز وضعيف وفي حاجة لخطّة عامة لإحيائه لكي يُثمر في فلسطين، وإن كان الرهان على أن تلعب فلسطين عبر شهدائها الذين يسقطون يومياً دور القاطرة للمشروع عامة، وأن تُحيي فينا التساؤلات التي عبر الإجابة عنها نعود لوعينا بجديّة.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

منبر حر: نقد فكرة «وحدة العرق اليهودي»
أسامة الصحراوي

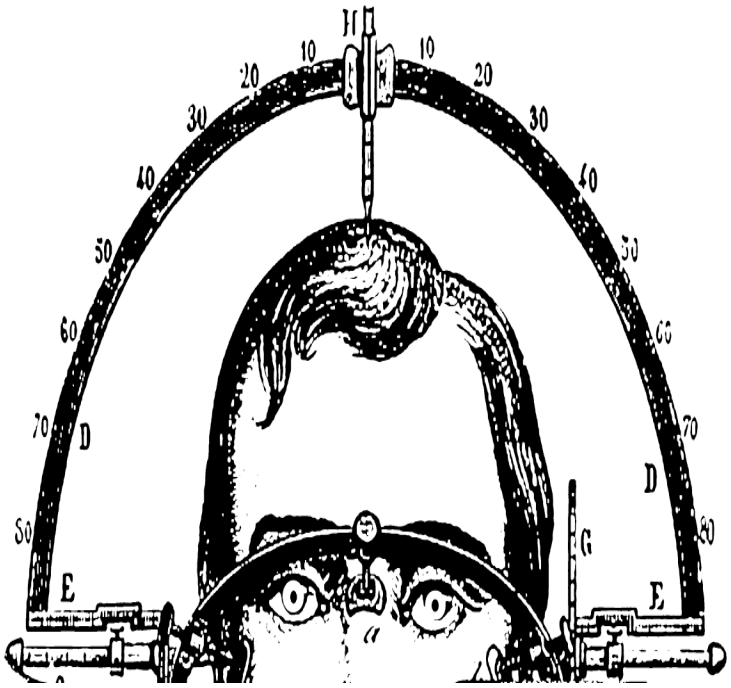

«القدس عاصمتنا منذ 3000 عام هنا كان يمشي أباؤنا وهنا هيكلنا وهنا حكم ملوك إسرائيل وهنا وعظ أنبياؤنا». هكذا قالها نتنياهو للتأكيد على أن التواجد الحالي لليهود في فلسطين هواستمرارية حتمية لتواجد سابق لهم، لكن ثقته في هذا الطرح قد لا تعادل ثقة الملك فيصل بن الحسين الهاشمي في حديثه مع حاييم وايزمان حين أكّد على صلة القرابة الدموية بين العرب واليهود، وقد لا تعادل الثقة والجزم المطلق الذي تحدث به الملك السعودي فيصل والملك الأردني الحسين الثاني عن القرابة الدموية بين العرب واليهود وعن التعايش التاريخي المشترك بين اليهود والعرب. بل أن السينما العربية عموماً، والمصرية خصوصاً، انخرطت في هذا الطرح من خلال ترويج فكرة فيلم «أولاد العم»، والملاحظ هنا أن هذه الفكرة تم تغليفها بهالة من الأسطرة حتى باتت فكرة مسلّمة لا يرتقي لها الشك لدى كثير من العرب ناهيك عن ملوك ورؤساء آمنوا بالفكرة وكرّسوها. فهل يصح القول أننا «أبناء عم»؟ وماذا يترتب عن هذه الفكرة الخطيرة خصوصاً في نظرتنا للقضية الفلسطينية؟ وهل الوجود اليهودي في فلسطين عودة الابن المهجّر المضطهد ام استعمار استيطاني احلالي؟

إنّ البحث الأكاديمي العلمي الذي يقصد الموضوعية قبل كل شيء آخر لا يعني الانبتات عن الواقع والصراع بل إن الانطلاق من القلق الوجودي العميق ومناشدة الدقة والموضوعية صنوان للوصول إلى نتيجة عملية وعلمية في أن ينبني عليها طرح سياسي وفكري متين. لذا فهذه المحاولة تتقصى الروابط التي يتم تقديمها حول صلة الوجود اليهودي الحالي بيهود التوراة، مستندين في ذلك على الأصل الجنسي والأنثروبولوجي لليهود، مع تأكيدنا كقوميين جذريين على رفض «الأساس العرقي» للقومية، أي قومية، ومع التأكيد أن اليهود ليسوا قومية طبعاً، إنما نستهدف هنا دحض فكرة «العرق اليهودي» الزائفة وبالتالي دحض ما يترتب عليها سياسياً.

مع نهاية القرن 19 كان عدد اليهود في العالم بين 8 و9 مليون يهودي يعيش 80 بالمائة منهم في أوروبا وتتناثر البقية الباقية منهم في تجمّعات مجهرية في آسيا وإفريقيا ثم في نقطة تجمع جديدة في أمريكا وتحديداً في مدينة نيويورك. ويعيش يهود أوروبا في مكرزين منفصلين غير متجانسين الأول قلبه بولندا وأطرافه في روسيا والبلطيق، ويضم حوالي 5 مليون يهودي، والثاني قلبه في ألمانيا، وتحديداً في فرانكفورت، وأطرافه في هولندا والألزاس واللوران، لكنه أقل بكثير من الأول وتتوزّع بعض الأقليات الأخرى في فرنسا والمملكة المتحدة. والتدقيق الأولي في هذه الأرقام يعني بالضرورة أن اليهود الحاليين ظاهرة أوروبية بامتياز.

تسم التاريخَ اليهودي ظاهرتان متلازمتان هما الانقطاع الزماني والانقطاع المكاني منذ السبي البابلي إلى الحرب التناحرية مع الرومان إلى الحروب الدينية-الاقتصادية الطاحنة في أوروبا. ثم إن انعدام الاستمرارية الزمانية-المكانية مع الزيادة الكبيرة في أعداد اليهود، والتي تعقبها حالة من شبه الجمود، يعني (أويفترض) أن النموالطبيعي لم يكن أبداً المحرك الرئيسي في تاريخ اليهود.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

ثم إن الديانة اليهودية هي الديانة الوحيدة المقفلة من بين الديانات السماوية، أي أنها تمتنع عن التبشير وهي في بداياتها ديانة جغرافية، أي منحصرة في رقعة محدودة، وديانة عنصرية أي موجهة لعنصر واحد، لكنها اليوم أبعد ما تكون عن ذلك، فهي منتشرة انتشاراً عالميّاً (توزيعاً مبعثراً) وهي تجمع أعراقاً وجماعاتٍ لا حصر لها "فلا الديانة مرادفة لعنصر جنسي واحد ومع هذا فاليهود واليهودية بالسياسة والمذهبية تمثل عنصرية عاتية وغاشمة تلخصها في كلمة واحدة: الصهيونية المعاصرة"، كما يخلص لهذا جهبذ الجغراسياسية جمال حمدان.

تجدر الإشارة هنا إلى أن عدد اليهود مثلاً في سنة 1940 بلغ (في أقصى تقدير) 15 مليون يهودي كان يعيش 10 مليون منهم في أوروبا و3 مليون في روسيا و3 مليون في شرق أوروبا. ولم يصل أن بلغ عدد اليهود تحت الحكم النازي في أقصى تقدير وفي ذروة التمدد النازي 5 مليون، تمكن أغلبهم من الهرب من الحكم النازي، لذا فإن أسطورة "المحرقة"، أوالمخرقة كما يصّفها الدكتور إبراهيم علوش، والتي زعموا أنها أتت على أكثر 6 مليون يهودي لا تتعدى كونها أكذوبة، بالإضافة لحقيقة أن أحداً لم يتمكن من إثبات وجود "غرف غاز" مات فيها شخص واحد في ظل النازية.

ثم حدث انقلاب دراماتيكي في توزيع اليهود السكاني مع اكتشاف العالم الجديد إذ أورد كتاب "اليهودية العالمية" أن 80 بالمائة من اليهود في العالم كانوا قد انتقلوا للعالم الجديد في إحصاء أواخر الخمسينيات. لذا فإن الخط العام للهجرة اليهودية لم يكن قط دينيّاً إلى فلسطين بل كان باتجاه الغرب دائماً رغم كل دعاوى الحركة الصهيونية التي جيشت وحشدت اليهود في اتجاه فلسطين. لكن إغلاق باب الهجرة إلى العالم الجديد ساهم في زيادة مطّردة لأعداد اليهود في فلسطين. ثم إن إحصائيات 1966 تشير إلى أن حوالي 38 بالمائة من يهود العالم تركزوا في الولايات المتحدة يليها الاتحاد السوفياتي بنسبة 17 بالمائة ثم تليه فلسطين المحتلة بنسبة 16 بالمائة، وهذا يوصلنا إلى نتيجة ثوريّة وهي أن أكثر من 70 بالمائة من يهود العالم يتركزون في ثلاث بؤر ما ينفي وهم الانتشار العالمي عن الديانة اليهودية ويؤكد أن الانتشار خارجها ليس إلا مجرّد وجود مجهري. ثم إن توزع اليهود بالأساس هو بالمدن والمدن الكبرى،لا سيما العواصم، إذ يتكرز أكثر من نصف يهود أمريكا في مدينة نيويورك حتى أن المدارس تغلق يوم السبت، ويصحّ القول أنها أكبر مدينة تضمّ يهوداً بل يصح أن يتم ترشيحها عاصمة لليهود بدل القدس. ويتركّز أغلب يهود فرنسا في باريس، وأغلب يهود كندا بين تورونتو ومونتريال، وأكثر من نصف يهود أمريكا الجنوبية في بوينس آيرس، وأكثر من نصف يهود إفريقيا الجنوبية في جوهانسبيرغ، وأكثر من نصف يهود بريطانيا في لندن، وعلى هذا ينسحب جل التواجد اليهودي في العالم.

وخلاصة هذا أن توزيع اليهود يتبع مراكز المال والأعمال والتكتلات البشرية الضخمة فهو ليس انتشاراً عالميّاً كونيّاً كما يراد إيهامنا. والغريب هنا أنّ اليهود سكان مدن أوفضلات مدن كما يصفهم جمال حمدان، إذ لا يعرف التاريخ تجمعاً يهوديّاً زراعيّاً يذكر، ولم تعرف المناجم في أمريكا ولا روسيا عمالة يهودية حقيقية، في حين كان أغلب نشاطهم الاقتصادي في السمسرة والربا والمعاملات المصرفيّة حتى أن أكثر من نصف المحامين والمصرفيين في مدينة نيويورك من اليهود. لذا فإن اتجاه الهجرة اليهودية الرئيسي كان مع اتجاه تطور الرأسمالية. ويصحّ القول إن التجمعات اليهودية الكبرى تستغل وتنتعش وتتغذى على النمط الاقتصادي الرأسمالي. والأمثلة على هذا كثيرة حيث أن 98 بالمائة من موظفي البورصة المصرية في بداية الخمسينيات كانوا يهوداً. ولقد تعرّض اليهود مثلاً لحملة من التهجير من بولندا إثر ثورة بوجدان شيميلنكي في القرن ال17 وذلك أنهم كانوا جباة الأتاوات للسادة الإقطاعيين. وقد انخفض مثلاً عدد اليهود في كوبا إلى العشر إثر الثورة الكوبيّة مع أنه لم يتم تسجيل أي انتهاكات تذكر ضدّهم باعتراف المراجع "الإسرائيلية" ومع وجود علاقات دبلوماسية بين كوبا و"إسرائيل"، إلا أن تغيير البنية الاقتصادية للاشتراكية كان وحده سبباً كافياً لهجرة اليهود. كما أن يهود تشيلي غادروها بعد وصول أللليندي حاملاً برنامجاً اشتراكياً ثم عادوا إليها مرة أخرى بعودة بينوشييه. كما تجدر الإشارة أنه لم يتم تسجيل هجرة حقيقية من أمريكا وكندا إلى الكيان الصهيوني في حين أن نسبة المهاجرين من فلسطين المحتلة في اتجاه أمريكا لم تنقطع أبداً.

إلى هنا نصل في البحث في توزيع اليهود وأعدادهم وطبائعهم الاقتصادية-الإجتماعية وأعدادهم على مرّ التاريخ إلى أن لا مجال لاستمرارية فكرة "العرق العبري" بعد هذا الانقطاع الدؤوب في الزمان والمكان. وهي نتيجة ستؤكدها نتائج الدراسات الأنثروبولوجية الطبيعية.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

يعتمد علماء الأنثروبولوجيا على عدة معايير في تقييم أي صلة ممكنة بين المجموعات البشرية وإمكانية انحدارها من أصل مشترك. ويمكن تقسيم هذه المعايير إلى معايير قطعية ومعايير ثانوية. يمكن الاستئناس بالمعايير الثانوية في حال تمّ ربطها بدليل قطعي لكنها لا يمكن أن تكون ذات دلالة جازمة قاطعة لأي استنتاج وحدها. ولعلّ أهم المعايير الأنثروبولوجيّة الثابتة لدى علماء الأنثروبولوجيا هي شكل الرأس أوالدليل الرأسي الرابط بين الطول (ط) والعرض (ع):

Cephalic Index
ع ÷ ط × 100

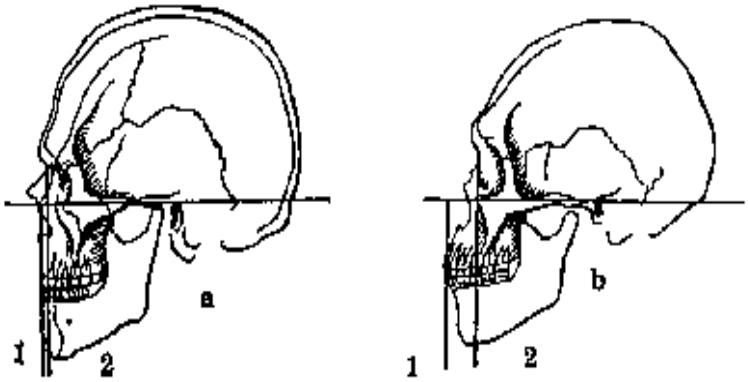

ويتمّ قياس هذه الأبعاد بواسطة بعض الأجهزة الفنيّة
ويوصف الشخص بأنه
ضيق جداً: 65 70
ضيق 65 : 70 70 : 73
متوسط 70 : 75 73 : 77
عريض 75 : 85 77 : 83
عريض جداً: + 85 + 83

أما المعايير الثانوية فلا حصر لها وتتمحور حول شكل الجسد من الطول واتساع الصدر والبنية العضلية ثم لون البشرة والشعر ثم شكل الوجه والملامح. ويمكن هنا أن نميّز بين البنية الجسديّة من ناحية ولون البشرة وتقاسيم الوجه من ناحية أخرى، حيث أن الدراسات الحديثة أثبتت أن الاستناد إلى شكل البنية دليل ضعيف بسبب التأثير المباشر للطبيعة والتغذية على البنية الجسدية. لكن يبقى الرأس حجر الأساس في دراسة علم الإنسان الحيوي لأنه من أكثر الصفات الوراثية ثباتاً على امتداد الأجناس.

إذا دققنا الآن في لون البشرة والشعر لدي اليهود نجد أن 75 بالمائة من يهود القرم من ذوي البشرة المائلة للسمرة، وتنخفض هذه النسبة لدى أشكناز أوروبا إلى 55 بالمائة، ثم تنخفض هذه النسبة مرة أخرى إلى أقل من 40 بالمائة من يهود ليتوانيا، وعلى النّقيض من هذا نجد اليهود الفلاشا حيث تغلب السمرة الداكنة. وهذا لا يدلّ فقط على عدم التجانس بل يقود إلى استنتاج أهم وهوأن اليهود يتأثرون بجينات المحيط الذي يتواجدون فيه فتجدهم أميل للسمرة حيث تسود السمرة وأميل للون الفاتح حيث يسود هذا اللون. وهذه هي النتيجة التي تؤكدها بحوث عالم الأنثروبولوجيا وليام ريبلي إذ يراهم "صورة مقربة من السكان المحيطين في كل مكان وانعكاساً لتركيبهم وتكوينهم الجنسي ومن ثم فإنهم لا يؤلفون إلا وحدة دينية لا جنسية ولا جينية"،وبذلك نصل للدليل القطعي على انقطاع نسل يهود فلسطن "الساميين" (و"السامية" مصطلح اخترعه المستشرقون للتعمية على كلمة "عربي"، فهو مصطلح توراتي لا علمي). ويجمع كل الأنثروبولوجيين أن يهود التوراة كانوا من الساميين وقد وجدت بعض الجماجم التي تعود إلى فترة سليمان تتّسم كلها بأنها طويلة بمعدل استطالة ما بين 70 و73. ثم ان الأشكناز وهم أغلبية يهود العالم كلهم من ذوي الرؤوس المستعرضة بمعدل يتجاوز 77 بل ويصل في أحيان كثيرة إلى 80 وهودليل قطعي على أن لا صلة جينية تربط الأشكناز بيهود التوراة، ثم إن اتساع الرؤوس هوميزة جوهرية لسكان أوروبا من نهر الفولغا حتى كاليفورنيا. وهذا يعني أن يهود أوروبا أوروبيون أصليون، وأن فكرة "معاداة السامية" ماهي إلا صراع أوروبي-أوروبي لا دخل لنا فيه بناقة أوجمل. كما أن اليهود المنتشرين في القوقاز تتحول رؤوسهم إلى شكل "قمع السكر" الشهير والذي يسم سكان تلك المنطقة من الأرمن والقوقاز.

لكن الملاحظ هنا أن السفارديم قد استطالت رؤوسهم (حتى أينعت) وهذا يفسّر بتواجدهم بالمحيط العربي والبربري الذي نشأوا فيه وتنقلهم من الأندلس، وهوما يؤكد دقة ملاحظات ريبلي حول تماهيهم مع المحيط الذي ذابوا فيه، وتقول دراسة الأنثروبولوجي المخضرم فليكس فون لوشان أن 5 بالمائة فقط من اليهود في العالم تنطبق عليهم مواصفات "الساميين القدماء" (أي العرب)، ونفس النتيجة يؤكدها البريطاني جيمس فنتون بقوله أن 95 بالمائة من اليهود في العالم لا تربطهم صلة عرقية بيهود التوراة.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

ثم يبقى أن نشير من جديد إلى أن يهود السامرة هم أنقى اليهود وأثبتهم جينيّاً بل وهم الوحيدون الذين يمكن ربطهم بيهود التوراة إلا أن عددهم المجهري (بضع مئات) لا يغير في حقيقة الأمر في شيء، وهوأن الوجود اليهودي في فلسطين وجود طارئ احتلاليّ استيطانيّ أوروبيّ. وهو ما يسقط تباعاً فكرة "أبناء العمومة" لأن يهود اليوم لا يربطهم شيء بإسحق، أويربطهم بفكرة "أرض الميعاد" لانها أرض العرب خالصة لهم دون غيرهم، وفكرة "معاداة السامية" لأن السامية أبعد ما تكون عنهم.

فإذا زدنا على هذا بقية المعايير الثانوية الأخرى كشكل العين والبنية وشكل الوجه نجد أنه يستحيل إيجاد نمط واحد ثابت في أي عينة عشوائية لذا يقول ريبلي: ليس اليهود جنساً بل مجرّد ناس بكل بساطة. وهوما خلص إليه دابلي حين لاحظ أن كل الصفات والألوان والملامح تنتشر عشوائياً بين اليهود. وهوأيضا ما يقر به كارلتون كوون مع أنه يقول بوحدة اليهود إلا أنه ينسبها لتركيب اجتماعي وثقافي محدد، ولا أعتقد ان كوون هنا يجانب الصواب.
وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفكرة العامة الشائعة حول أن لليهود سحنة معينة لا تخطئها العين ليست فكرة مغلوطة، وهي ليست ناتجة عن وحدة الأصل الجيني بل عن وحدة النمط المجتمعي بما هي طريقة تعبير وتفكير ولغة جسد تعكس مركب اقتصادي-اجتماعي استعلائي وانعزالي.

ثم إن نظرية "وحدة الجنس" ناهيك عن كونها انتهازية فهي تزييف للحقائق والواقع وهي تجميد لحركة التاريخ بسعيها إلى تجميد حركة تطور المجتمع. والصهيونية تعلم علم اليقين أن "الاضطهاد" الذي مورس على اليهود ليس إلا نتيجة نزعة استعلائية (شعب الله المختار) ونمط حياة اقتصادي قائم على الابتزاز والانعزالية معاً. لذا فإن جو التسامح الديني يعتبر من أكبر الأخطار التي تهدد بذوبان قطعة الجليد اليهودية التي تتقاذفها أمواج الأمم: ذوبانهم لا كعرق فحسب، لأن هذا حتمي، بل وكديانة أيضاً. وهنا يلتقي الصهاينة والوهابيين في ضرورة إذكاء الحرب الدينية وما تركيزهم على فكرة "يهودية الدولة" إلا الوجه الآخر للدولة الإسلامية "داعش". وفي هذا الإطار أيضاً تندرج فكرة "المحرقة" تكريسا للساديّة من طرف وللمازوشية من طرف آخر والسعي المحموم لتذكير العالم ان آلامهم هي آلام المسيح خلاصاً لبشريّة همجيّة. لذا تتاجر الصهيونية في الاضطهاد بل وتستثمر فيه لتكون "إسرائيل" بذلك دولة المنتفعين من الاضطهاد، بل إن فكرة "إسرائيل" في حد ذاتها ما هي إلا امتداد لفكرة الغيتو على مقياس أكبر.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

الصفحة الثقافية: تاريخيّة السّيرة (3) – المؤسّسات الاجتماعيّة قبل الإسلام

محمد العملة

تُبرز الأنثروبولوجيا التاريخيّة (أي المُسقطَة على الماضي) الثقافة كمجموعة مؤسسات حياتية تتداخل في بُنية المجتمع، كون الأنثروبولوجيا معنيّة بدراسة سلوك الإنسان في مجتمعه. ولأنّ الدين يدخل في مجال الثقافة بالمعنى العام -وسنشرح معناه في الجزء القادم-؛ أو لنقل السَمْت المجتمعي أو الأعراف؛ فإنه من المفيد الأخذ بالأنثروبولوجيا ليس فقط لمعرفة التغيير الذي يحدثه الدين في البنية الثقافية للمؤسسات في المجتمع، بل أيضاً ليجيب عن أسئلة أساسية يثيرها الجدل بين ما هو قديم، وهو هنا الوثنية كدين وأعراف، وبين ما هو جديد، أي الإسلام كدين وأعراف، وهي مسألة على صلة مباشرة بما ذهبنا إليه في الجزئين الماضيين من هذه المقالة، أعني تحديداً فهم الخطاب القرآني بوصفه مصدراً للسّيرة، ثم فهم كتب السيرة التي تنطلق عادةً من البحث في مؤسسات قريش الجاهلية كمدخل للتأريخ.

يرى "هشام جعيط" أنّ النبي العربي محمد بن عبدالله إفرازٌ لوسطه، وهو رجل التغيير الجذري الرافض للثقافة السائدة، أي رجل القطيعة مع حاضره، لكن "جعيط" لا يرى الأنثروبولوجيا فقط كوسيلة لفهم ما ذكره القرآن عن مؤسسات الجاهلية وما محاه منها، بل لتجيب عن أسئلة من نوع جديد، مثل: لماذا محمد؟ لماذا في ذلك الوسط؟ لماذا ذلك الوقت تحديداً؟

حسناً، الأسئلة السابقة قد تُفهَم على أنها دعوة للبحث في تركيبة الشخص المؤسِّس للدين، أي النبي، لكن أصحاب الأديان الكبرى لهم تركيبة نفسية خاصة من الصعب سبْر أغوارها، بل حتى عظماء الفن والتاريخ والأدب لهم شخصيات مميزة وغير مفهومة، ومثل هذه الأبحاث قد لا تأتي بثمار مرجوّة، على الرغم أننا نعلم أن تاريخ نشأة الإسلام مرتبط بشخص محدد هو النبي، قام بكل العبء اللازم، وهذا يثبت دور الأفراد في خلق التاريخ، لكن الإسلام وما انطوت عليه رسالة التوحيد المضادة لمعظم الأعراف والمؤسسات السائدة جعلت الله، الإله المطلق المتعالي لبَّ الرسالة وجوهرها؛ إلا أن المُطلق -بحسب الفيلسوف هيغل- لا وجود له إلا بجماعة تتقمصه وتؤمن به، والنبي عمل على تأسيس هذه الجماعة ليكون الله روحها والضامن لنظامها؛ فما يوحّد البشر على الدوام، هو كيانٌ متعالٍ خارج عن المُعطَى المادي، حتى أن السيادة الإنسانية تقوم على الرموز وتحتاج إليها.

هنا نتحدث عن دين لاقى رفضاً في وسطه الذي نشأ فيه، ثم انتشر بشكل سريع ليصبح الدين العربي الذي غداعالمياً في ما بعد، وهذا يدفعنا للبحث في طبيعة المؤسسات القُرشية بشكل خاص والعربية عموماً، وبالتالي الإجابة عن الأسئلة التي طرحناها.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

القبيلة والعشيرة:

بشكل عام، اعتمدت التركيبة الاجتماعية لدى العرب على القبيلة والعشيرة، وهي القاعدة التي انبنت عليها الذهنية العربية، وتمخّضت عنها الأعراف والمؤسسات والسمت العام بل وحتى اللغة؛ يطغى فيها النمط الرعوي في وسط الجزيرة العربية، وهو ما كان مختلفاً قليلاً في الجهة الغربية حيث مكة ويثرب؛ فالأولى اعتمدت التجارة، والثانية اعتمدت الفلاحة والزراعة، وفيهما تأسَّس الإسلام وانتشر، أي أنه انتشر في وسط حضري أو شبه مدنيّ.

مع ذلك، بقيت هذه المدن متداخلة مع عالم البداوة بقوّة، وهو ما أعبر عنه دائماً بالقول أن قيم العروبة القديمة العليا (الحرب والشّعر) حافظت على استمرارها بسبب نمط الحياة غير المستقر للقبائل دائمة الترحال فيها، سواء كان الترحال قريباً أم بعيداً، أي أن عدم استقرارها طبيعي أصلاً، وكله على علاقة بالمكان والزمان اللذين عاشت فيهما هذه القبائل. قريش كغيرها، قامت على تربية الماشية ونمط الرعي، ثم استقرت مع الوقت؛ فاكتسبت هوية أهل الحضر والمدن، واختلف نمط إنتاجها من الرعي إلى التجارة، لكنها حافظت على الهوية العامة البدوية وأعرافها، وهو ما ينطبق بإطاره العام على أهل يثرب والطائف أيضاً.

هناك اختلاف بين العشيرة والقبيلة تطرحه المعادلة التالية، أن العشيرة تسبق القبيلة في الوجود، ومجموع العشائر يشكّل قبيلة واحدة، اتّحدت فيما بينها لأمور على علاقة بالأمن والكلأ والماء. لذلك فإنّ من المنطقي أن يكون الجدّ الأعلى للقبيلة وهميّاً، أو أنّه الجد الحقيقي للعشيرة الأقوى على أقصى تقدير، ضمن إطار القبيلة بالطبع. يضيف "هشام جعيط" أن هذه العشائر تشكّلت بينها في الماضي علاقات قامت على أساس الطوطميّة لرموز حيوانية، وبعد اندثار الطوطميّة بقيت تسميات الرموز التي صارت اسماً للقبائل مثل: ثعلبة، أسد، كلب، وحتى قريش.

في الغالب تكوّنت التجمعات القبليّة بهذا الشكل، إضافةً لمحاولات انتظام العرب في كيانات تتجاوز القبيلة منذ القرن الرابع قبل الميلاد، لكنها كانت تزول بفعل التدخل الخارجي القوي، لعل أبرزها ممالك "النّبط" و"كندة" و"تدمر"، ولاحقاً تكونت ممالك أخرى في محيط الجزيرة العربية وعلى تخوم الإمبراطوريات الكبرى، كالغساسنة والمناذرة، لكن بشكل عام، كان من الصعب تجاوز القبليّة في وسط الجزيرة لصعوبة الظروف التي توجِد صراعاً بين القبائل على الغذاء والماء؛ فالمجاعة أمر طبيعي تصوّره المصادر العربية القديمة في ممارسات عديدة، منها تناول المآكل الغريبة كالقنفذ والجراد واليربوع، بل وحتى التقاط القمل من الشعر المحلوق خلال مواسم الحج الجاهلي لتناوله، وكان من شأن هذا كله أن يجعل نمط الإنتاج لدى قبائل الوسط رعوياً، مجبِراً إياهم الحفاظ على رأس مالهم من الأنعام والحيوانات، ونلاحظ هنا أن العديد من مفردات اللغة واشتقاقاتها مأخوذ عن مفردة (الناقة) وصفاتها وحركتها.

هذه المعطيات فرضت مؤسسات في المجتمع القبليّ مثل: القِرى، المطعِمون، والغزو.

المؤسسّات:

القِرى والمطعمون مؤسستان تقومان على مبدأ أن سادة القبيلة من واجبهم الاجتماعي -الذي لا مفر منه- إطعام الضيوف وأبناء العشيرة، ففيهما تبرير للثروة، وكأنّ تجميعها (الثروة) لا معنى له إلّا أن يتم توزيعها.
المؤسستان تعبيرٌ عن سلوكيات شكّلتها الذهنية العربية مثل الذمّة والنجدة وشعور الشريف بواجب الحماية لمن هم دونه، ورفض الظلم والضيم، ولعل هذا من إفرازات البيئة الصعبة، لتتكون شبكة اجتماعية قائمة على التعاون والتكافل؛ فمن يقري الضيّف يُقرى، وفي القرآن إبراز لهذه الملامح يفهمها العرب المخاطَبون في قصة النبي إبراهيم مع الملائكة، إذ تحاشوا الأكل من عجل القِرى (الضيافة)، فخافَ على نفسه منهم.

أما الغزو فقد كان أمراً طبيعيّاً ومقبولاً، لكن لم تكن كل القبائل مسلّحة، لأنّ الخيل والسلاح يتناسبان طردياً مع الحالة المادية والثروة، وفي ذلك يصف "الجاحظ" في كتابه "البُلدان" القبيلة القادرة على الغزو بالشريفة. يعني الغزو اصطلاحاً، السطو بالقوة لافتكاك أموال الآخرين، مما ترتب عليه وجود مؤسسة أخرى عند العرب هي "الثأر"، وهي لا تمسّ القاتل بالضرورة، بل أي شخص في قبيلته، بوصف القبيلة جسماً واحداً، ولأنّ مبدأ الثأر يقوم بشكل عام على أخذ النّفس بالنّفس.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

هنا يطرح "هشام جعيط" مسألتين مهمتين، الأولى: أن الثأر يتموضع كمؤسسة أو أداة تخويف وكنظام في ظل انعدام وجود الدّولة الجامعة لكل القبائل. والثانية: أن الثأر لم يكن يعني المجازر، بل العكس تماماً، إذ يرد في الآثار القديمة أنه كان ضابطاً لوقف القتال بين المتخاصمين بمجرد رفع شعار "البقيّة"، أي المحافظة على من تبقّى على قيد الحياة.

أودّ هنا أن أضيف نقطة ثالثة لم يسهِب فيها "جعيط"، ألا وهي "الدّية" التي وضِعَت كبديل للثأر، ورأى فيها العرب مكرمة وحقناً للدماء.

يتضح مما سبق أن القبيلة كانت بؤرة تضامن، لكنها في نفس الوقت لم توجد مساواة فعلية بين أفرادها وعشائرها، بل تراتبيّة خلقت نوعاً من الطبقات أو السّلطة، وهي مهمة هنا لترتيب الشأن الاجتماعي واتّخاذ القرار، وتتمثل في علاقة الأبوّة الذكورية (شيخ العشيرة)، لأن العشيرة توسيعٌ لمفهوم الأسرة أصلاً. رمزيّة الأب في الذهنية العربية معنيّة بالقيادة، وسنتطرق إليها بإسهاب أكثر في أجزاء قادمة على صلة مباشرة بالجانب العقدي والدينيّ، لكن ما يهمنا هنا أن القيادة لصيقة بالشّرف عند العرب، الذي لا يتأتى إلا بإفراز العشيرة للبيت الحاكم (الآل) بوصفهم الأكثر عدداً كسلالة. الإسلام بعد انتشاره تجاوز مسألة الشرف القبلي مستبدلاً إياها بشرف العطاء حسب السبق في الدخول إلى الملّة الجديدة والجهاد في نشرها، وبقي الأمر على ذلك حتى آلت مقاليد الحكم لبني أميّة الذين أكثروا من استخدام لقب "الشريف" في سادة القبائل المستقرة أو المقاتلة تحت لوائهم.

كوننا ذكرنا بني أميّة، لنتحدث بشيء من التفصيل عن قريش، عن تأسيس القبيلة وعن مؤسساتها.

قريش:

المؤسّس على ما تذكر المصادر هو "قصي بن كلاب" الذي استقر في البطاح حول مكّة، وهو ليس الجدّ الأعلى لكل العشائر التي انضوت لإحقاً تحت اسم قريش، منها بنو مخزوم، بنو عَدِيّ وبنو تيم، ومثلهم "قريش الظواهر" الذين سكنوا خارج البطاح وأُلحِقوا في القبيلة بعد ذلك بزمن، وكلهم لا صلة دم تربطهم بقصي، ونحن قلنا في مطلع المقالة أن القبيلة تجمّع للعشائر بناء على مصلحة أو غَرَض يوحّدها.

يُنسَب إلى قصي إبداع مؤسسات السّقاية والرّفادة والسّدانة ودار النّدوة، والمفترض أنه سيد بيت قريش، لولا النزاع -المذكور في مختلف المصادر- بين أبنائه، والذي لم ينتهِ إلا بتوزيع السيادة بينهم على هذه المؤسسات. بعد قصي استقرت السيادة بشكل كبير في عشيرة "بني عبد مناف" وتحديداً في سلالة "عبد شمس"، وخلال حرب "الفجّار" قاد "حرب بن أميّة" القبيلة بأكملها، مما يدلل على هيبته وهيبة السلالة المنتمي لها (أي بنو عبد شمس). هذه السيادة التي كانت وقتية خلال الحرب، استرجعها ولده أبو سفيان بعد موت ذوي الأسنان من قريش في أيام الإسلام الأولى، وليس صدفة أن يكون ولده معاوية -لاحقاً- مؤسس أول بيت حاكم في الإسلام - مع الأخذ بعين الاعتبار، كل الصراعات السياسية والفتن التي تلت موت النبي العربي محمد بن عبدالله -؛ فالعرب عرفتهم كأحد بيوت قريش الرئيسة، ممن لهم دراية بالحكم في الجاهلية.

لكن بني عبد مناف لم يكونوا وحدهم أصحاب السيادة والشرف، والحق أنها مسألة معقدة في قريش؛ ففي وقت ظهور الإسلام لم يكن هناك بيت شرف بالمعني البدوي، أعني بيتاً أو سلالة من عشيرة تسود على كل عشائر القبيلة، بل كان هناك مجموعة سادة لكل عشيرة، يتم تبجيلهم حسب معايير قديمة كالسّن، أو جديدة كالثروة، ومجموعهم يؤلف قيادة جماعية سمّيت "الملأ".

الملأ كان تمثيلًا لقيادة مجموعة من العشائر، تكنّت بأسماء لأجداد من جيل معيّن، كان لعدد أفراد كل منها دوره في تشكيل القرابة من جهة الأب/الجد المسماة "العَصَبَة" وبالتالي منح القوة للعشيرة التي ينتمون لها، وهي علاقة لم يستطع العرب حتى بعد انتظامهم في دولة أن يغيّروا منها، والسبب أنها كانت القاعدة في العطاء والتعبئة العسكريّة، فلم يكن هناك جيش نظامي بالمعنى الفعلي حتى منتصف فترة الدولة العباسية، وكانت القوى المقاتلة وقتها قبليّة بامتياز.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

يوضح الكلام السابق أن لبَّ الاجتماع عند العرب قام على أساس القرابات وروابط الدم، في سلالات يشكل مجموعها العشيرة، ومجموع العشائر يشكل القبيلة، والعرب تصوروا أنهم ينتمون إلى جدٍ واحد في القبيلة الواسعة، لكن هذا وَهْمٌ كما أسلفنا، وقد يصحّ الانتماء إلى جد واحد على مستوى العشيرة، ويكون حتمياً في السلالة.

روابط الطّبيعة وروابط الاختيار:

بشكل عام، قامت المجتمعات الإنسانية البدائية على الأساس البيولوجي (روابط الدم) لكونه غرائزيّاً ثابتاً بالزواج والبنوّة والأخوّة، كالعَصَبَة من جهة الأب، والرّحم من جهة الأم، ومع مرور الوقت وتطور المجتمعات، انفتح الناس على علاقات قرابة اختيارية (غير بيولوجية)، مثل: الحلف والجوار والتبنّي والولاء.
دراسة علاقات القرابة له صلة بموضوع هذه المقالة، لأنها في صميم الأنثروبولوجيا، فهي تعبير عن بُنية فكر الإنسان وتصوره للعلاقة مع محيطه المجتمعي.

إن الفرق بين علاقات القرابة البيولوجية وغير البيولوجية يمثّل تطوراً في الفكر وتحولاً من الطبيعة المحضة إلى الثقافة، وبهذا تُبنى المجتمعات، ويظهر الفرق في أجَلّ صوره في أعراف الزواج وموانعها ومحارمها.
عند دراسة المجتمع العربي القديم، يقع المستشرقون في خطأ فادح، إذ يعتبرون أن الزواج يحصل في المجموعة البيولوجية الواحدة، وهنا يقصدون بالمجموعة الواحدة، القبيلة. لكننا ذهبنا إلى أنّ القبيلة مجرد وحدة رمزية ليست مبنية على قرابة الدم، ولكي لا نكون مجحفين؛ فإن كلام المستشرقين أمثال "فلهاوزن" و"لامنس" قد يصحّ على القبائل الرعوية الفقيرة وسط الجزيرة، لكنه لا ينطبق على مجتمعات القبائل الشريفة شبه الحضريّة في مكة ويثرب والطائف مثلاً.

بالنسبة إلى قريش، كُتب الأنساب القديمة تدعم الكلام السابق، وفيها نعثر على زيجات عديدة خارج إطار القبيلة نفسها، كما نتأكد من وجود قواعد صارمة تقيّد الزواج ضمن إطار العشيرة الواحدة، وتجعله محرّماً ضمن السلالة الواحدة، أي أن المجتمع قام على أساس الزواج الخارجي (من خارج العشيرة)، فلم يكن الهاشمي ينكح هاشمية، ولا الأموي أمويّة، وهذا ينسحب على بقية العشائر حتى الصغيرة منها، مما يعني أن زواج أبناء العمومة كان من المحارم عند القبائل الشريفة في الجاهلية، لكن الإسلام أشاعَه لاحقاً حتى صار ينعت بالزواج العربيّ عند الأنثروبولوجيين، وهنا نلحظ أن الإسلام كدين جاء ليكسر موانع قديمة تقع في صميم ما أفرزته الذهنية العربية على مدى زمن طويل.

إن هذه الموانع -في وقتها- كانت تظهر تفوق السلالة/العَصَبة على الفرد نفسه، لكن في نفس الوقت وُجِدَت أعراف بديلة (اختيارية) لتعوّض عن هذه المحارم في مؤسسة الزواج، منها: البدل، المتعة، الاستبضاع، المساهاة، الضّيزَن، الضّماد، السّر، وحتى البغاء، لكنها أيضاً لم تكن منتشرة في القبائل الشريفة، فلا يبنى عليها شيء إلا حوادث متفرقة هنا وهناك.

إنّ تفوُّق العَصَبة على الفرد لم يأتِ من فراغ، بل نتيجة البنية الأبوية لتشكيلة العشيرة، مما له انعكاس على مؤسسات اجتماعية أخرى، مثل:

- الإرث، وفيها يحصل الذّكر على حصة أكبر من الأنثى، لأنه يقوم عليه عبء الثأر والوتر والديّة وفك العاني.
- التبنّي، ويكون المتبنّى فيها كالابن البيولوجي الحقيقي، يجري عليه ما على الابن البيولوجي من موانع ومحارم وثأر وإرث، ويدعى باسم أبيه الذي تبنّاه، ولعل سبب وجودها معزو إلى إيجاد عَصَبة لمن لم يكن له ولد.
- الولاء، ويكون فيها المولى في منزلة بين الأحرار والعبيد، إلا أنه يدخل إجبارياً ضمن العشيرة وقد يستتبع ذلك تبنّيه.
- الحِلْف، ويقع بين الأحرار أفراداً كانوا أم جماعات، والمفردة مشتقة من الحَلِف (القَسَم)، الذي يحصل عادة في مكان محرم، أي أن له صفة دينية، وفيه عهد بالحماية والأمن، ويجري على الحليف فيها الثأر والدية كما على الصريح (ابن القبيلة المتحالف). ولأن الحلف كمؤسسة معنية بالجماعات، فإن الإسلام أسقَطها لأن فيها ما يمكن أن يشكل خطراً على المنضوين في حلف الدين الجديد، فلا تكون هناك جماعة أخرى، منعاً للانقسام.
- الجوار، وهو عهد بالحماية لكنه مؤقت غير دائم كما الحلف، وأداة لحفظ الأرواح في مجتمع تغيب عنه الدولة.

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

وبعد، إن النظر في طبيعة المؤسسات -العربية عموماً والقرشية خصوصاً- التي أفرزتها العلاقات الاجتماعية القبليّة بشكلها الشمولي، يعطي فكرة قوية عن الناس الذين شكّلوا مادة الإسلام الأولى قبل الشروع في تأريخ السيرة، ويفسّر لماذا بقيت بعض هذه المؤسسات وأُسقِطَت معظمها، كما يعطي النص القرآني -كمصدر للسيرة- معنًى أكثر تاريخية، ويؤسس لفهم الأنثروبولوجيا الدينية ومؤسساتها الجاهلية، وهي التي سنأتي على ذكرها في الجزء القادم، ليسهل بعدها تفسير ما الذي يعنيه إسقاط السلوك القبلي، وما هي الأنثروبولوجيا البديلة التي حمل أعباء رسالتها النبي العربي إلى قومه.

يتبع..

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

قصيدة العدد: أنا مع الإرهاب

مقاطع من قصيدة لنزار قباني

متهمونَ نحنُ بالإرهابْ
إنْ نحنُ دافعنا عن الوردةِ والمرأةِ
بكلِّ جرأةٍ
عن شعرِ بلقيسَ
وعن شفاهِ ميسونَ
... وعن هندٍ ... وعن دعدٍ
... وعن لبنى ... وعن ربابْ
عن مطرِ الكحلِ الذي
ينزلُ كالوحيِ من الأهدابْ
لن تجدوا في حوزتي
... قصيدةً سريةً
... أو لغةً سريةً
أو كتباً سريةً أسجنُها في داخلِ
الأبوابْ
وليسَ عندي أبداً قصيدةٌ واحدة
تسيرُ في الشارعِ وهي ترتدي
الحجابْ
****
متهمونَ نحنُ بالإرهابْ
... إذا كتبْنا عن بقايا وطنٍ
مخلع ... مفككٍ مهترئ
... أشلاؤه تناثرتْ أشلاء
... عن وطنٍ يبحثُ عن عنوانِه
وأمةٍ ليسَ لها أسماءْ
***
عن وطنٍ لم يبقَ في آفاقِه
حريةٌ حمراءُ .. أو زرقاءُ ... أو
صفراءْ
***
... عن وطنٍ
يمشي إلى مفاوضاتِ السلمِ
... دونما كرامةٍ
ودونما حذاءْ
***
... الملحُ ... في عيونِنا
..والملحُ في شفاهِنا
والملحُ ... في كلامِنا

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

فهل يكونُ القحطُ في نفوسِنا
إرثاً أتانا من بني قحطانْ ؟؟
... لم يبقَ في أمتِنا معاوية
... ولا أبو سفيان
... لم يبق من يقول (لا)
في وجهِ من تنازلوا
... عن بيتِنا .. وخبزِنا .. وزيتِنا
...وحولوا تاريخَنا الزاهي
إلى دكانْ
***
... لم يبقَ في حياتِنا قصيدةٌ
... ما فقدَت عفافَها
...في مضجعِ السلطانْ
**
.. لقد تعودنا على هوانِنا
... ماذا من الإنسانِ يبقى
حينَ يعتادُ الهوانْ؟؟
**
... متهمونَ نحنُ بالإرهابْ
... إذا رفضْنا موتَنا
... "بجرافاتِ "إسرائيلَ
... تنكشُ في ترابِنا
... تنكشُ في تاريخِنا
... تنكشُ في إنجيلِنا
... تنكشُ في قرآنِنا
... تنكشُ في ترابِ أنبيائِنا
إنْ كانَ هذا ذنبَنا
.... ما أجملَ الإرهابْ
***
... متهمونَ نحنُ بالإرهابْ
.... إذا رفضْنا محوَنا
على يدِ المغولِ ... واليهودِ
... والبرابرة ...
... إذا رمينا حجراً
على زجاجِ مجلسِ الأمنِ الذي
استولى عليهِ القياصرةْ
***
... متهمونَ نحنُ بالإرهابْ
إذا رفضْنا أن نفاوضَ الذئبَ وأنْ
نمدَّ كفَّنا لعاهرةْ
**

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

... أمريكا
...ضدَّ ثقافاتِ البشرْ
... وهي بلا ثقافةٍ
ضدَّ حضاراتِ الحضرْ
وهي بلا حضارةٍ
...أمريكا
بنايةٌ عملاقةٌ
ليسَ لها حيطانْ
***
... متهمونَ نحنُ بالإرهابْ
إذا رفضْنا زمناً
صارَت بهِ أمريكا
المغرورةُ ... الغنيةُ ... القويةُ
... مترجماً محلفاً
للّغةِ العبريةْ
**
... متهمونَ نحنُ بالإرهابْ
... إذا رمينْا وردةً
... للقدسِ
للخليلِ
... أو لغزةَ
... والناصرةْ
... إذا حملْنا الخبزَ والماءَ
... إلى طروادةَ المحاصرةْ
*
... متهمونَ نحنُ بالإرهابْ
إذا رفعْنا صوتَنا
... ضدَّ كلِّ الشعوبيينَ من قادتِنا
... وكلَّ من قد غيرُوا سروجَهم
... وانتقلُوا من وحدويينَ
إلى سماسرةْ
***
إنْ نحنُ دافعْنا عنِ الأرضِ
وعنْ كرامةِ التّرابْ
إذا تمردْنا على اغتصابِ الشعبِ
... واغتصابِنا
... إذا حميْنا آخرَ النخيلِ في صحرائِنا
... وآخرَ النجومِ في سمائِنا
... وآخرَ الحروفِ في أسمائِنا
وآخرَ الحليبِ في أثداءِ أمهاتِنا
... إنْ كانَ هذا ذنبَنا
ما أروعَ الإرهابْ

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

... أنا معَ الإرهابْ
إنْ كانَ يستطيعُ أن ينقذَني
... منَ المهاجرينَ من روسيا
... ورومانيا، وهنغاريا، وبولونيا
وحُطّوا في فلسطينَ على أكتافِنا
... ليسرقُوا ... مآذنَ القدسِ
... وبابَ المسجدِ الأقصى
... ويسرقُوا النقوشَ
... والقبابْ
**
... أنا معَ الإرهابْ
إنْ كانَ يستطيعُ أن يحرّرَ
... المسيحَ
... ومريمَ العذراءْ
... والمدينةَ المقدسةْ
من سفراءِ الموتِ والخرابْ
***
... بالأمسِ
كانَ الشارعُ القوميُّ في بلادِنا
... يصهلُ كالحصانْ
وكانتِ الساحاتُ أنهاراً
... تفيضُ عنفوانْ
... وبعدَ أوسلو
... لم يعدْ في فمِنا أسنانْ
فهل تحولْنا إلى شعبٍ
من العميانِ .. والخرسانْ ؟؟
***
... متهمونَ نحنُ بالإرهابْ
إنْ نحنُ دافعْنا بكلِّ قوةٍ
عن إرثِنا الشعريّ
.. عن حائطِنا القوميّ
.. عن حضارةِ الوردةْ
عن ثقافةِ النايات .. في جبالِنا
وعن مرايا الأعينِ السوداءْ
... أنا معَ الإرهابْ ***
إنْ كانَ يستطيعُ أن يحررَ الشعبَ
... من الطغاةِ .. والطغيانْ
وينقذَ الإنسانَ من وحشيةِ الإنسانْ
ويرجِعَ الليمونَ والزيتونَ
والحسونَ
... للجنوبِ من لبنانْ
.... ويرجِعَ البسمةَ للجولانْ
***

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

... أنا معَ الإرهابْ
إنْ كانَ يستطيعُ أن ينقذَني
... من قيصرِ اليهودِ
أو من قيصرِ الرومانْ
***
... أنا معَ الإرهابْ
... ما دامَ هذا العالمُ الجديدُ
مقتسماً
"ما بين أمريكا .. و"إسرائيلَ
بالمناصفةْ
***
... أنا معَ الإرهابْ
بكلِّ ما أملكُ من شعرٍ
... ومن نثرٍ
ومن أنيابْ
**
أنا معَ الإرهابْ
ما دامَ هذا العالمُ الجديدُ
قد صنفَنا
من فئةِ الذبابْ
**
... أنا معَ الإرهابْ
إنْ كانَ مجلسُ الشيوخِ في
.. أمريكا
هو الذي في يدِه الحسابُ
... وهو الذي يقررُ الثوابَ
والعقابْ
***
... أنا معَ الإرهابْ
... ما دامَ هذا العالمُ الجديدُ
يكرهُ في أعماقِه
رائحةَ الأعرابْ
***
... أنا معَ الإرهابْ
... ما دامَ هذا العالمُ الجديدُ
... يريدُ أنْ يذبحَ أطفالي
ويرميَهم إلى الكلابْ
**
... من أجلِ هذا كلِّهِ
أرفعُ صوتِي عالياً
أنا معَ الإرهابْ
أنا معَ الإرهابْ
أنا معَ الإرهابْ

العدد رقم (44) صدر في 1 كانون الثاني عام 2018 للميلاد

كاريكاتور العدد

انتهى العدد